إبداعات جديدة

١

... وأشرقت عيناها

أسماء عبد الفتاح أبو العينين

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة
د. حسن أبو طالب

سلسلة كتب ثقافية

اسم الكتاب: **وأشرقت عيناها**
رقم الإيداع: ٩٠٤٩ / ٢٠١٤
تدمك: 3 - 7979 - 02 - 977- 978
١٤,٢٥ / ٢٠,٥ سم
عدد الصفحات: ٧٦ صفحة
القاهرة: الطبعة: الأولى ٢٠١٤

لوحة الغلاف للفنان العالمى ديكاريكو

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف

تم التنفيذ فى مطابع دار المعارف
- ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة -
جمهورية مصر العربية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

إهـــــداء

إهـداء إليك يـا وردتى البيضاء، يـا حبى الغالى، يـا أحلى لحظاتى وسـكناتى، يا من نظمت له ا الشعر ولم أكن شاعرة، يا من أحببتها حبا لم أحبه لإنسـان من قبل، يا أعظم هوى وأكبر حب، حب لن ينسـيه أى حب، إنه حبك أنت يا أمى. أمى التى لا أدرى هل هذا تكريم؟ أم اعتذار؟ أم مواساة لنفسـى؟، فأنت لم تعودى إلى جوارى، لقد ذهبت بعيدا بعيدا إلى عالم آخر، لا أعلم ولا أدرى إن كنت ستشـعرين بهذا أو لن تشـعرى، إن كان سـينفعك أو لن ينفعك، ولكن هكذا تسـوقنى مشـاعرى أن أهديك وأكتب عنك، أن أتحدث عنك بعد أن كنت أتحدث إليك، أن أرسـم اسمك بكل الأركان، أن ألون به صفحة السـماء، أن أعـترف بجميلك، أن أقبل حـذاءك بعد أن قبلت قدمك، أن أقبل سـريرك، أن أنام على وسـادتك، ليـس لكونك أمـا فقط.... بل لأنك كنت دومـا... ومازلت... أعظم أم وإن كنـت اليوم بعيدة، لا تشـاركيننى حياتى كما كنت دوما، ولا تتنفسـين هوائى، ولا أسـتطيع أن أرى وجهك الأبيض المشـرق.... أشعر بك قريبة جدا يا أمى... زينب إبراهيم.

أسماء عبد الفتاح أبو العينين

مقدمة

مع ضغط الظروف تختل أحيانا لدينا الموازين.

ومع قسوة الحياة نفقد أمورا عزيزة، تسرق منا الفرحة، الموت والظلم وسـرقة سـنوات العمر ومع غدر الأحباب تزداد الحياة قسوة، قصصت شـعرى، ونحل جسـدى، وضاعت سنوات العمر، وسـعيت نحو من لم يقبلنى فتركنى بعد أن تاهت منى نفسى.

شعرك القصير وعيناك الغائرتان

وبـدأت تغير فى شـكلها وهيئتها ونظرت لأول مرة بعد سـنين فى المرآة لتتابع أثر الأحداث فى وجهها، نظرت منكسـرة، حزينة لنفسها مطأطئـة الرأس صامتة ترقب ما فعلتـه الأيام، وظلت صامتة تنظر بتيه وحزن صامت قاتل، وظلت هكذا سـاعات، كانت بالنسـبة لها الأيام والسـاعات ليسـت ذات قيمة، فهى لم تعد تشعر بقيمة الوقت، حينما خرجـت رأت تغـيرات عديدة حولها، أكثر مما لاحظته فى شـكلها، فأطفـال الجيران أصبحوا كبارا: أناس ماتوا، وأطفال ولدوا، من الممكن أن تمر عليها ساعات تفكر فى فكرة واحدة، فهى لم تعد تشعر بالوقت ولا تشـعر بأى شـىء حولها حتى دخلت أمها التى بدا عليها السـن بضـراوة والتى دخلت ببطء حتـى اقتربت من ابنتها بعد أن أخذت من يدها المرآة وهى تربت على كتفها قائلة لا تفكرى بما أحدثه لك الماضى، وظلت تتكلم ولكنها لم تسـمعها وظلت غارقة فى سـحابات الصمت، وهى مطرقة برأسـها كأنها تفكر بمسـألة صعبة الحل كأنها ترى سنين العمـر ودهر الأحزان الذى أصاب كل طـرف من أطرافها وكل جزء من روحهـا وتحول صوت أمها إلى صراخ، كأنها تحاول أن توقظ نائما كان قد مات، فاسـتيقظت على وجه أمها الذى بدا عليه علامات السـن من أثر الهموم، فتهربت من قسوة ما عانت وما رأت إلى النوم والعلاج ومرت الأيام والشـهور وظلت كما هى، لم تتغير ظاهريا ولكنها تغيرت نفسـيا

بعد النوم العميق وتشربها الحنان من كل من حولها، وبدأت بالعلاج من كثير من الأمراض العضوية البسيطة، ولكنها لم تفكر بالعلاج النفسى.

وبعد شـهور قضتها فى النوم والعلاج والاسـترخاء، بدأت تسـتعيد قدرتها على الكلام والسـير فبالرغم من أنها لم تخرج مشـلولة أو خرساء فإنهـا خرجت وهى لا تطيـق الحركة أو الكلام، وحينما تضع رأسـها على الوسـادة تشعر براحة لم تدركها منذ سـنوات، وتستغرق فى النوم كأنها تشرب من بئر خمر يسكرها ولا يريحها وإن كان ينسيها، وبدأت تتلقـى العنايـة والاهتمـام من أسـرتها والأطباء، وهى تتشـرب كل ما يعطـى لها وكأنها تروى أرضا عطشـى منذ سـنين، وبدأت تخرج من شـرنقتها، وبدأت تقابل من يأتى لزيارتها، بعد أن كانت خائفة من أن تلقاهم، كانت ترهب الأعباء، وكانت تعلم، أنهم يمثلون لها عبئا، وقدم العديدون، ولكنه لم يأت، لم يأت سامر رمزى خطيبها، الذى لم تره منذ سنين، ولم يتقدم لغيرها للخطبة، كان كتوما، هادئا، لم تشعر يوما بحبه لها، ولكنها كانت الفتاة المناسـبة بـكل المعايير، كانت اختيار والدته، لم يشعر تجاهها بانجذاب برغم انبهارها البين به، فقد كان الجار الذى حلمت أن تتزوجه منذ سنوات، ومع إنها كانت تنتظر قدومه ولم يأت، لم تنهـار ولم يحزنهـا ذلك كثيرا؛ فقد اعتادت الخسـارة. وإن كان قد سـبب لها الأمر بعضا من الإحباط ونمّى لديها الشعور بالخسارة ولكن لم يكن الأمر ليدمرها. فقد مر بها الكثير وأصبحت الآن قوية، وخرجت إلى الشرفة ونظرت إلى الشارع الذى نشأت فيه شارع هادئ من شوارع مصر

الجديدة ليس بالواسع بجفاء ولا الضيق الخانق، كان كالحلم الجميل، شارع يظلله على جانبيه شجر الفيقس المربع الجميل، وهواه نسيم، وعماراته راقية بسيطة، ليست بالشاهقة ولا بالصغيرة كانت وسطا بكل شيء تلك الوسطية الهادئة بلا اشتعال، لا غنى فاحش ولا فقر مدقع، شارع يرمز لزمن بسيط فى حبه ومتطلباته، به مدنية بلا قسوة شوارع مرصوفة بلا ضوضاء، استقرار، هدوء، رقة، صباحه الهادئ بشمسه المشرقة، إنها تشتاق لأركانه، لشجرته ذات الورد الأصفر، لشجرة الورد البلدى الأحمر على طرف الشارع. تشربت البساطة تشربت منها الهدوء وعبير الصيف والشتاء الذى يأتى عبر حديقة وافرة بالزروع برغم صغرها حجما، بدأت تستمتع وهى ناظرة من الشرفة على شارعها، بدأت تستيقظ داخلها ذكرى راحة، متعة، عشق لهذا المكان الذى ترعرعت فيه، شوارع تمثل عصرا بدأت لمساته تشرف على الانتهاء، عصر يعتنى بالذوق أكثر من المادة، وكان سامر واحدا من هذا الكون الذى لم تشعر يوما بالغربة أو الاختلاف فيه برغم جفائه معها، فكان مثلها ملتزما هادئا، محملا بثقافة غربية جعلت منه مشتتا داخليا ولكن ظاهره كان مثل شارعه هادئ خيالى، ولعل هذا كان من الأسباب التى جرفت مشاعرها إليه، إحساسها بعدم الاختلاف، بالتلقائية، بالانتماء، كانت مشاعرها البريئة تنجرف إليه كسريان المياه إلى الأراضى دون تفرقة إن كانت خصبة أم قاحلة. ولكنها بدأت تفاجأ بأن الشارع لم يعد الشارع نفسه وطلبة مدارس المنطقة الذين كانوا يخرجون من العمارات المتقاربة

فى الوقت ذاته تشـتتوا وعاش كل منهم بمكان مختلف، أصبحت ركنة السيارات صفين، ازدحم الشارع، بدأت تظهر علامات غنى فاحش شوه معالمها، نكسـت عمارات رقيقة وبنى مكانها أبراج، سـوبر ماركتات، وضوضاء، تغيرت الموضة وتغيرت الملابس والأذواق وتسـاءلت: هل ظل سامر كما هو؟

سـارت بالشـوارع حائرة تائهة، تلـك الحيرة وذلك التيـه اللذان يحطمان الإنسـان، ومع هذا سارت بلهفة، سارت بلهفة المشتاق لرؤية المحـب، تريـد أن ترى كل المعـالم، معالم الشـوارع التى تغيرت فى سنوات قليلة بقسوة، مدن جديدة خالية بجفاء، تشتت، ذعر، خوف، لم تعد القاهرة التى عشقتها وأحبتها، وقفت على شاطئ النيل، وما أن رأته حتى ارتعشـت كل أوصالها، شـاعرة بحنين يجرفها إليه، إنه لم يختلف كثيرا، مازال حانيا، مازال معطاء، وأغلقت عينيها لتستنشـق بعمق كل ما اسـتطاعت من هوائـه، وبرغم أنه رواها فإنه لم يرو ظمأها وتمنت أن تكون طائرا صغيرا يطير فى سمائه ويشـم كل عبيره، وألقت عيناهـا الناظرتان أحزان سـنوات وسـنوات أرادت أن ترويها للنهر، وبدأت تسـير بالشـوارع التى عرفتها بالأمس وتغربت عنها، ولم تشعر بالألفة، اكتسحت المولات محلات الملابس وأصبح الجميع يتلهف على سيتى سـتارز وسنسـبرى، وما بين كنتاكى وهارديز يوجد بيتزا هت، وأمـور عديدة أقحمت فـى الحياة، ومن أجل تخفيضـات أو خدمات تـرى مكانا واحدا يضم مسـتويات وأشـخاصا متباينـة، ويتطلع الكل إلى الـكل، ويتطلع الجميع إلى الأضواء المبهرة، والموسـيقى الصاخبة،

تشدك وتسعدك بالوهم للحظات، وتشعرك بالتيه واللهث طيلة حياتك، وشرهت النفوس ولم يعد يشبعها الرضا.

ومع كل هذه الأمور القريبة واقعيا والغريبة ضمنيا، المبهجة المتعسة، القريبة الغريبة، شعرت أن الكون وما فيه أصبح كائنا واحدا وهى كائن آخر، أرادت أن تكون جزءا من هذا الكون الذى رفضت أن تتحداه كما كانت، بل تريد أن تمتزج بأجوائه، كقطرة وسط مائه، أرادت ألا تكون مختلفة، أرادت أن تفرح، أن تستمتع بالدنيا التى حرمت منها، أرادت أن تعيش بلا تعقيدات أرادت أن تفرح... أن تجرى... أن تعود كطفلة لا يعنيها سوى الحنان، اشتاقت للناس وأرادت أن تعاملهم وأن يعاملوها، اشتاقت للهناء والعيش بلا أعباء، أرادت أن تنسى، لقد تألمت لسنوات وكفاها ألما الآن. أرادت أن تحِب وأن تحَب، أرادت أن تلقاه. سامر رمزى ذلك الفتى الذى حلمت به لسنوات، ذلك الشاب الهادئ الرزين. إنها تتذكره.. تتذكر هدوءه، تتذكر وسامته، كان لا يتحدث إليها كثيرا برغم كونه خطيبا، لم تشعر يوما بلهفته عليها، كان هذا الأمر يحطمها قررت أن تحاول؛ أن يحبها، كانت تسمع كثيرا ممن حولها أنه إن لم يكن معجبا بها فلم تقدم إليها؟! ولكنها كانت تعلم جيدا أنه إن كان هناك أحد يحب الآخر فإنه هى، ومع هذا لم تحدثه فى هذا الأمر؛ فقد كانت تخاف أن تخسره، كانت تعلم أنها لا تعجبه كثيرا وأنها مجرد عروس تنطبق عليها المواصفات، كانت حينما تجلس معه يشرد بعيدا، قررت أن تحاول، أن يحبها ،وأن تتغير لأجله، فأتى القدر لتتغير كلية

لأجله، لحظات من العمر وتغير كل شـيء، لم تستمر الخطبة طويلا، ابتعدت لخمس سـنوات، أغمضت عينيها وتنفسـت الصعداء وكأنها تتذكر أشخاصا غرباء ولم تشعر بالألفة وأصبح كل ما يعنيها أن تستمتع بهذه الدنيا وأن تعوض العمر الذى فات، إنها تريد أن تعوض كل شيء وأن تنسـى كل شيء، وتخفت من الحقيقة ومن شعورها بالاختلاف، فقصت شعرها وذهبت لتشترى بنطلون جينز تلجى بلون السحاب فى صفحة السـماء، ولم ترتد بادى ضيق؛ فهـى لا تريد جذب الأنظار، وتريد أن تتحرك ببساطة، واشترت بلوفر سكرى هادئا ناعما، وفردت قصتها الناعمة حول وجهها الذى أصبح أكثر رقة وألقت بنفسها وسط آلات الملاهـى لتدور بها وتدور لترفعها لأعلى وتلقى بها، وهى تصرخ فى لحظة وتضحك فى لحظة وتبكى فى لحظات، وفى تلك اللحظات رأت شـخصا يتطلع إليها من بعيد بجوار سـيارة سوداء وينظر نحوها بشـفقة فمسـحت دموعها بخجل، وغادرت المكان وسارت بالشوارع والطرقات، وركبت تاكسيا دار بها أرجاء المدينة، وظلت تفتح عينيها لتشـبعهما بمدينتها الغالية، ولتنسـيها الصور الملازمـة أمام عينيها، حتى مرت أمام عينيها منطقة معينة، فسـرت فى جسـدها رعشـة، وأغلقت عينيها بسـرعة، حتـى اختفت المنطقة فتنفسـت الصعداء، ونزلت من المواصلة وظلت تسـير وتسـير وحيدة حتـى عادت لمنزلها حزينـة، لا تفرح لما تتشـربه من الحياة. ومـا إن ترجع لمنزلها حتى ترى والديها، ودون جهد تشـعر بأسعد اللحظات وبالدفء وبالأمان، لا تنغصه سوى ما ترى فى وجهيهما من حزن.

ورأت سامر رمزى والتقت به فى نهار يوم بارد وكانت واقفة بالمحطة فنظر إليها من مسافة ليست قريبة على استحياء وأراد أن يقترب منها ولكنه ظل يرقبها من بعيد، شعرت أن أحدا ما ينظر إليها من هناك، وما أن لمحت وجهه حتى أشاحت بوجهها عنه وحركت بعصبية بعض خصلات شعرها المنسدلة على وجهها، ونبض قلبها بشدة وقسوة أظهرت ما بها من توتر وازدادت عنفا وجعلتها تقطر دمعة حارة هاربة منها، حتى نظرت أمامها بتوتر وركبت أول ما رأت دون أن تعرف وجهته، وظلت تراودها الأفكار هل كان مهتما بها؟ هل أراد أن يحادثها؟ وشعرت ببرودة شديدة تسرى بجسدها، أسقطت من عينيها دموعا كثيرة رغما عنها، ونظرت أمامها من الشباك، لتسلى نفسها وهى تفكر هل أخطأت أن غادرت بسرعة؟ ولكن لم؟، وهل أتى إليها من قبل وسألها؟، وفجأة توقف الأتوبيس حيث نهاية طريقه، فنزلت وما أن نزلت حتى لاحظت عربة سوداء فارهة توقفت بالقرب من الأتوبيس بالمحطة، ولكنها لم تهتم ولكنها لاحظت السيارة تتبعها، فتوقفت فى ذعر، فتجاوزتها السيارة مبتعدة، فابتسمت براحة ساخرة من هواجسها، وظلت تسير لساعات وساعات تائهة، تعبة وعادت إلى منزلها بعد أن أنهكها التعب، إنها تريد أن تنام، لقد أنهكها الحزن والفرحة، كانت فى تلك الليلة متذبذبة وكأنها شقت إلى نصفين، نصف يحبه ويشتاق إليه، والآخر معاتبا يرفضه، وكلاهما يتنازعان، وخرجت إلى الشرفة الهادئة فى سكون الليل، كان الجو ككأس من الثلج المنعش البارد، كان الليل دامسا، ساكنا آمنا هادئا مستقرا،

والســماء زرقاء قاتمة والنجوم تتلألأ بها،كانت ليلة حانية، كل ما بها يسجد للرحمن، باتت ليلتها متأملة هادئة حزينة تسقط دموعها بصمت وبحرارة، وسعيدة لأنها تشعر بالارتياح بعد ألم سنين، إنها هنا فى تلك الشرفة التى عشقتها، تعرف قيمتها الآن، وتتأمل السماء، بهذا الشارع الهادئ الرقيق بعماراته المتشابهة وبأشجاره التى على جانبيه، وبسكانه المحترمين، يا لها من لحظات، إنها تنعم بحضن والديها الذى لم تنعم به منذ ســنين والتقت به أخيرا. واســترخت ليلتها بالشرفة تتطلع إلى الســماء فى دفء وراحة وهدوء. وفى اليوم التالى خرجت وهى تأمل أن تراه، كان الضباب شــديدا، وكان الكون كفستان زفاف أبيض شفاف، وقفت بالمحطة وهى مرتعشــة، منكمشة تحاول أن تلملم حرارة جسدها لتدفئ هذا البرد القاسى القادم إليها، تلفتت حولها ولم تره ظلت هناك لســاعات وســاعات، أرادت أن تراه أن تبحث عنه، عن السعادة، عن الأمــان، ومــن لا يبحث عن الأمان؟! وما فى هــذا؟، فقد ضاعت منها أغلى سنوات، ولكنه لم يأت، ولم يكن هناك، أطرقت برأسها حزينة، شــعرت أنها فقدت كل شــىء، وكما فى لحظات اليــأس يولد الأمل، وبينمــا هى تنظر إلى الأرض سمعت صوتا بقربها قائلا: نهى؟ كان يبدو أن صاحب الصوت ليس متأكدا أنها هى، أما المســتمعة فكانت متأكدة أنه هو... رفعت رأسها فى مواجهته بهدوء قائلة سامر.

ومــا أن التقت عينــاه بعينيها، حتى امتــلأت عيناها بنظرة عتاب وحزن وظلت عيناها ساكنة كصاحبتها، فبادرها بالسؤال: أهذه أنت؟، وظــل يتأملها بإعجــاب، وهى تتأمله باشــتياق، واســتطرد قائلا لقد

تغيرت، وصمت للحظة وسألها: شعرك القصير وعيناك الغائرتان؟، فى تلك اللحظة رأت بعينيه بريقا لم تكن لتراه من قبل؛ إن نظرته قد تغيرت كلية، إنها لأول مرة تراه مشدودا لها منبهرا بها، إنها طالما حاولت جذب انتباهه، وطالما حاولت أن تغير من نفسها من أجله، فأتى القدر لتتغير كلية من أجله، وكأنها المرأة التى كان يبحث عنها منذ زمان، وكأنه كان حينما كان شارد الذهن كان يفكر بها. لقد رأى بصورتها البريئة لغزا، فلم تكن تلك الفتاة التى كانت تسكن بالجوار تجذب انتباهه بأى شىء، أما تلك فإنها مختلفة، نظرة الحزن التى تخفى الكثير من الحكايات، وذلك الوجه البيضاوى الرقيق، تلك النظرة الرقيقة الهادئة له، دارت الدنيا حولهما، وبدأت تسطع الشمس، وبدأ الضباب ينقشع، وسرح كل منهما فيما أهمه، هو فى عينيها العسليتين، وشعرها الناعم الذى انساب على وجهها، وهى بالذكريات، حينما كانا طفلين، حينما كانت تعود من المدرسة لتبحث عنه، حينما كانت تقف بالشرفة لساعات لعلها تراه من وراء الأشجار، إنها تتذكر اليوم الذى التفت بنظره أول مرة إليها بالشارع حينما كانت عائدة من المدرسة مع زميلاتها، وكيف أنها ظلت تستعيد ذلك المشهد فى ذكرياتها لسنوات، واليوم استيقظ ذلك المشهد ثانية، وأفاقت فجأة وابتسمت بتوتر وهى تنقل نظرها بعيدا كأنها تنتظر شيئا بعيدا أكثر أهمية منه، ثم أعادت النظر نحوه قائلة: استأذن، قالتها وكأنها تقول له لقد تحدثنا أكثر مما يجب فأماء لها برأسه، ثم قالت وهى تهم بالركوب معاتبة: سلم لى على طنط، كانت طنط سهير بالنسبة لها بمثابة أقرب

صديقة وجارة لوالدتها، ولعل ما قوى أواصر الصداقة تلك الخطوبة التى كانت بينهما، المثير فى الأمر أن سامر لم يكن متحمسا للخطبة، ولكن ما دعاه لهذا كانت والدته، وما أن دخلت نهى السجن حتى اختفت والدته، وبعد فترة لم تعد حتى تلقى بالتحية على والدتها، حينها علمت والدة نهى أن هذا بمثابة فسخ للخطبة، ولكن ما آلمها أكثر قطع عروة الصداقة لسنين، كان هذا ما سمعته نهى من والدتها حينما عادت إلى المنزل وأخبرتها أنها التقت بابنها بالمحطة، فردت على أمها قائلة لعلها إن تحدثت معك بوضوح كان أفضل من هذا التجاهل المهين وخرجت إلى الشرفة ناظرة بيأس إلى ما وراء الأشجار، وتأخر سامر فى القدوم لخطبتها، وما سمعته أن والدته تحارب بشدة ضدها، بعد أن كانت تحارب لأجلها، وتعجبت لهؤلاء الناس التى تخر أعناقهم للظروف، ويختلف تعاملهم مع الشخص وفق ظروفه، وعلى الرغم من أن اختيار سامر دوما كان يخالف اختيارات والدته، فإنه كان دوما يختار ما تختاره بانسجام غريب ما بين القبول والرفض. من الصعب أن يقال عن سامر أنه ابن أمه ولكن من السهل أن يقال إنه ابن مجتمعه، هذا المجتمع الأنانى المتخاذل، الذى من الصعب أن يتخذ قرارات ولكن من السهل أن يتبرم! لم يكن لسامر الشجاعة التى تجعله يناقش ويدافع ولكنه جلس سارحا حزينا، ولعله كان يشعر نحو نهى بالحب ولعله كان مقتنعا بكلام والدته، ومع كل هذه التناقضات استيقظ سامر ذات يوم باكرا وبلا مقدمات طالب والدته بالتقدم لخطبتها، لم ترفض والدته ومع هذا لم يبد منها القبول...

وتمت الخطبة ومرت الأيام السعيدة بسرعة كأنها سيمفونية رائعة تسمعها تحت شجرة وارفة على ضفاف نيل واسع، بدأت تشعر أخيرا بحبه، هذا الحب الحقيقى الذى لا تفرقه الأيام أو الحياة أو حتى الموت، فى هذا اليوم صرح لها بحبه، قال لها: لم أكن أتصور أنك جميلة هكذا من الداخل، إنك رمز للجمال الروحى والمعنوى، لا أعلم كيف لم أدرك هذا يا أجمل نساء الدنيا، إن رقة مظهرك ما هى إلا رداء أبيض شفاف لروح بيضاء تشع حولها نورا قمريا فى ليل دامس، وكانت تجيبه قائلة: إنك نهر من الفرحة وسط موج من العذاب. واستمرا بلقاءات متعددة، ركع أمام عينيها، صرح لها بحبه أكثر من مرة، بدأت نظرتها تتغير للحياة بدأت تستمتع بإشراق الشمس، بدأت تتأمل كل ما حولها، بدأت تنظر بتفاؤل لكل الأمور، بدأت تتحرك بسعادة لا تكف عن الضحك، وكأن بركانا كامنا من الخمول كونته الأحزان أتت الفرحة لتفجره فى ضحكات شقية ودموع حارة، لدرجة أنها كانت تسير لساعات طوال لا تمل وكأنها تعوض ما فقدته من سعادة ولتعوض ما عانت من أحزان، كأن لسان حالها يقول: أريد أن أنسى كل ما كان، أن أنسى كل الوجوه، كل المآسى، أريد أن أعيش فقط كفتاة حالمة.

اللغـــز

كانت نهى بالنسبة له لغزا، ولعل هذا ما جعله مشدودا إليها، الفتاة التى اختفت لفترة لا يعلم عنها أحد، وغابت عن الجميع وعن العيون لسنوات، وظهرت فجأة بعد سنوات بعد إشاعات عن تورطها سياسيا.

فــى بادئ الأمر لم تكــن تعنيه كثيرا لكن بعد مــا رآها بالمحطة متغيرة المظهر والملامح لمس شــيئا من الفضول فى نفســه، وبدأ يفكر بها وهو يعمل وهو يأكل وهو يشــرب، وبدأ يخرج إلى الشــرفة المطلة على شــرفتها لكى يراهــا أو يرى النجوم ثم يتصــل بها. إنه منبهر كلية بها، كانا حينما يخرجان معا يظل ســارحا فى نظرتها البريئة المتطلعــة بشــوق كطفل فرحا ببلونة حمراء، وهــو فى تلك اللحظات لم يكن ليتابع الأمور التى تجذبها من أضواء عالية، من أماكن جميلة من موسيقى صاخبة من ورد، من سماء مشرقة، من سواحل وشطآن، من ملابس ومولات، وإنما كان يتابع أمرا أكثر تشــويقا، ابتسامتها، فرحتهــا المجنونة بأمور بســيطة، بضحكتها ببكائها، بســر عظيم كانت تخفيه وراء كل تلك الادعاءات، كانت كمجتمع محمل بأعباء لا يفكر إلا فى ضحكة ســاذجة، أو أكل الآيس كريم، أو بالتأمل فى الطبيعة من مركب ذى شراع.

وذات يوم بينما كانا سويا فى عشاء بالخارج، وبينما كانت تتحدث بســعادة لم تختلقها بــل أتتها راكعة فقاطعها وهو مطــرق الرأس قائلا بصوت حان هادئ: ما هى القصة؟ فسألته: أى قصة؟ فأجابها بحزم: القصــة التى ســببت لك الحــزن الآن بعد أن كنت تهربــين منها بتلك الضحــكات، مــا الذى...؟ وقبــل أن يكمل تتغير ملامحهــا إلى التوتر والحــزن وتنظر إليه نظرة حازمة تأمره بالتوقــف، وكأنه يدخلها رغما عنها إلى مغارة من مغارات الأحزان قائلة: أية قصة؟

– عندئذ نظر فى عينيها بحزم: أنت تعلمين؟

– ازداد توترهـا أمام إصراره وأخبرته: لا يوجد جديد، كما سمعت مـن كل الناس، قال لها: أريد أن أسمع منك، واسـتطرد مبديا تفهمه وهو ناظر إليها بحنان مشجع: منك ستكون مختلفة، ما الذى بداخلك؟ ما هذا الشىء الذى أحزنك كل هذا الحزن؟.

– قاطعته بحـدة قائلة بانهيار وهى تغالب دموعها، بابتسـامة سـاخرة متعجبة مـن تحدثه ببسـاطة وقالـت وكل ملامح وجهها ترتعش: ماذا تريد أن تسمع؟ ماذا يعنى السجن؟ ماذا تعنى الوحدة؟ مـاذا تعنى الإهانة؟ ماذا يعنى أن تظلم؟ ماذا يعنى أن تتغير حياتك فجأة؟ وأن تشـعر بالغربة عن كل شـىء عن الناس عن الوجوه: أن تشـعر أنك شىء والكون شـىء آخر، أن تبتعد عمن حولك، ورفعت إصبعها بعصبية نحو فمها الذى يتنهد بقسوة ماذا يعنى أن تساق بقوة وعنف بعيدا عن أحبائك لسـنوات، وتحولت نظرتها من الحزن إلى العتاب الشـديد لتركه لها فى الماضى فى أحلك الظروف مستدركة: عفوا... فإنك لم تكن هناك، ونزعت الكرسى من تحتها واقفة بحدة مغادرة بسرعة.

ظل جالسـا مذهولا للحظة، ثم اسـتدرك فجأة أن يلحق بها ولكنها كانت قد استقلت تاكسيا وغادرت.

لم تتوقـف الدموع حتى وصلت حجرتهـا ووقفت أمام المرآة وبدأت تتطلع إلى ملامحها وتتحسـس شـعرها القصير، وبدأت تشعر بالهدوء، واستلقت على السـرير منكمشة ونامت ليلتها وهى تمسح دموعها حتى غلبها النوم وهى ترتعش، والمصباح مضىء.

دنيـــا

دنيا ســامر أقبلــت عليها أم أشــرفت على الانتهاء. أيــام نحياها بخيرها وشــرها ونغادر ونتركها، الفرحــة لا تكتمل والمتع تنقضى. هل تعلقــت نهى بدنيا أم تعلقت بســامر أم أن ســامرا دنيــا ما كان لها أن تتعلق بها، وأشــرقت الشــمس فتنهدت بارتياح، ونظــرت إلى النافذة ذات الزجاج الشــفاف ناظرة إلى الضوء الذهبى المشــرق والذى برق مع عينيها العسليتين، وتذكرت حديثها معه، ونظرته الرقيقة لها فابتسمت ابتســامة هادئة، فرغم خوفها فلقد ارتاحت بعــد أن تحدثت إليه عما آلمها، وأمســكت تليفونها فرأت اتصالات عديدة منه، إنها لم تتوقع أن يأتــى اليوم الذى تتحدث معه بتلك الحرية دون خوف من أن يتركها، بل إنه يســأل عنها بجنون، إنه حقا يحبها، قامت بسعادة، وجهزت الإفطار وسقت الورد بالشرفة، ووقف بالشرفة المواجهة لها مطرق الرأس وعيناه متعلقة بها وهو يداعبها بابتســامة رقيقة تعتذر وكأن لسان حال صاحبها يقول لا يعنينى ســواك، وســألها أن تقابلــه فأماءت له برضا بالموافقة، وعلى شاطئ النهر قالت له: لعل ما مضى – برغم قسوته – إلا إنــه أعطانــى حبا الآن، لقد كنت أحلم أن تنظر إلىَّ تلك النظرة، أن تحبنى هذا الحب، أن تكون مشــاعرك مشــدودة إلى، وتحركت برشاقة على شــاطئ النيل، وبجوار الأشجار فاتحة ذراعيها لهواء النيل وكأنها تحيى بها روحا كانت قد شاخت، قائلة: إن الدنيا جميلة... جميلة، وصمتت لحظة وهى تتأمله بعينين دامعتين: بك الدنيا أصبحت جميلة، وتنهــدت بارتيــاح بعد أن أزاحــت هموما ثقيلة، لقد نســيت الآن كل

ما فات، وقالت وهى تلتفت: لقد كنت علاجى وتوقفت وهى تنظر نحو سيارة وقفت على الجانب الآخر، فتعجب سامر وسألها: ماذا هناك؟ فقالت له أعتقد أننى قد رأيت هذه السيارة من قبل وما أن أنتبه إليها حتى تغادر، فابتسم قائلا: إنها لم تغادر هذه المرة لأننى بجوارك ونظر إليها بحب وإشفاق: لا أدرى ما الذى أقدمه لك لتنسى كل الأحزان؟ ابتسمت بهدوء يكفينى أنك بجوارى، وفى تلك اللحظة فُتحت نافذة السيارة ونظر من بها إليهما بتأمل حزين. وظل يتابعهما بعينيه حتى اختفيا عن ناظريه، وسارا معا عائدين إلى المنزل، ودعته ليتناول معهم الفطور، فقال لها لقد فطرت باكرا، فقالت له، إذًا سأفطر أنا متأخرة، ودخلت متفائلة، فنظر إليها والداها بتعجب، كانت بالأمس حزينة واليوم سعيدة، وبدأت تتناول بشهية، حتى سمعت التليفون الذى جرت نحوه، فقال والدها بقلق: إننى قلق بشأنها فأجابته أمها: إنها سعيدة ألا ترى كيف تطير من الفرحة كالفراشة؟ فرد عليها: الفرحة أحيانا تقتل كالحزن تماما، إذا أبعدتنا عن طريق الله، خرجت من حجرتها وتوضأت وصلت الصبح، فجلس بجوارها والدها على سجادة الصلاة مبتسما لها بحنان: ليتك صليت قبل شروق الشمس، وربت على رأسها بحنان: لقد جعل الله عز وجل لكل شىء ميقات، الميلاد بميقات، والموت بميقات، ونظر إليها متفهما: والحب أيضا بميقات، لا تستعجلى أمرا أجله الله عز وجل، ولا تؤخرى أمرا قد آن أوانه، حينها نظرت إليه بسعادة إنها تحتاج لهذا الحنان، إنه يكفيها عن كل هذه الدنيا.

إنه شـعور عجيب من الأمان والحنان يكفيـك عن كل المعاناة بتلك الدنيـا، ووقف قائـلا معاتبا لها برقة: صلاة الفجـر أيضا ميقاتها قبل الشـروق، نظـرت له مبتسـمة بإحراج: سـأصلى الضحـى الآن، فرد ضاحـكا وهو يشـير إليها: إنـك منافقة، تريديـن أن ترضينى وليس ربـك، فردت قائلة أليس رضا الأب من رضا الرب؟ فأجابها وهو مازال محتفظا بابتسامته قبل أن يغادر: نعم وليس العكس. تأملت كلام والدها وفهمت ماذا أراد أن يقول، وسـألت نفسـها من تريد أن ترضى؟ تتلون وتتغـير لترضـى من؟ لماذا تريد أن تعود كطفلة؟ لمـاذا تريد الهروب من المسؤوليات؟ وفكرت لأول مرة، لماذا لا تتزوج هى وسامر؟ ماذا ينتظران؟ هل تلك الساعات التى يقضيانها سويا هل هى حق أم يسرقان أمرا؟ إنه لم يلمس يدها، ولكنها تعلقت به بشدة، إنها سعيدة وهى بجواره ولكن ماذا سيضير لو تزوجا، هل يتعرفان على بعضهما؟ إنهما مخطوبان منذ شـهرين وتعرفه من الطفولة، إنها ترتدى ملابس لا ترضى ربها ولكنها ترضيـه وترضـى المجتمع، إنها تريـد أن تكون جزءا مـن هذا الكون حولهـا، لا إنها تريد أن تكون كما يحب أن تكون، وما أن سمعت رنة التليفون حتى انتفضت واقفة تاركة السـجادة. مرت الأيام ولم يحادثها سامر عن اتمام الزواج، ولكن والدها تحدث إليه، قائلا له أريد أن أفرح بكمـا وأرتاح، وكأنه أراد أن يهديها السـعادة قبـل أن يغادر... وغادر والدها... غادر دنياها التى انتظرتها منذ سنوات...

وارتـدت الحجاب بالعـزاء، وتردد على أذنيها السـؤال نفسـه: مـن تحب أن ترضـى؟ وأتت لحظة دخول والدهـا النعش وعلا صوت

الصــراخ، ولكنها لم تصرخ، لعلها صرخت لأمور لا تســتحق من قبل، ولكن الأمر اليوم مختلف، إنه أكبر من الصراخ أكبر من البكاء، إنه لأمر عجيب، فمَن مِن البشــر تخيل أنه يوما ســيدخل نعشــا، وهو يعلم أن آخرتــه بنعش يغلق عليــه، ويترك منزله ويغادر دنياه ولا يدرى إلى أين ســيذهب إلى الجنة أم إلى النار؟ وســألت نفسها كيف تعصى ربها وهى تعلم أن غدا ليس ملكها، ومن حولها من ســيقررون أين ســتدفن وما هو كفنها، وســيحملونها ويتركونها وحدها وحيدة، ولن تعود إلى منزلها أو ترتدى ملابســها، أو تأكل طعامها! فجأة الحياة تنقضى، وتخلع عباءة الأحلام والآلام، الأشغال والخصومات الكبيرة والصغيرة ويترك وحيدا، مهما كان عظيما، سيترك يوما وحده.

أُتبعــت الجنازة بقول الله أكبر، ذهبــت إلى الجامع لتصلى عليه، وكانــت هذه اللحظــة المريحة بهذا اليوم الأليم، إنه بين يدى الله أرحم الراحمــين، وهــذا القبر ليس به إلا الجســد أما الــروح تصعد إلى ربها ليعذبهــا أو يدخلها الجنة، إن والدها كان رجلا مؤمنا؛ إنها لا تخاف عليه، وعادت إلى المنزل وخلعت الحجاب ونظرت إلى وجهها وشــعرها بالمرآة، وتســاءلت من تشــبه ومن أرادت أن تشــبه؟ مــا الذى حدث؟ ما الــذى غيرها؟ إنه الموت الذى لم تره من قبل، إنه لأمر عجيب إنها حســابات جديدة، إن إرضاء ســامر لم يعد من أولوياتها، إن هناك أمرا أهم، إنه إرضاء الله.

* وســألت نفســها لماذا لا ترتدى الحجاب؟ أأختار الله ورسوله أم أتقلب مع تقلبات وأهواء المجتمع؟ أم أتقلب وفق أهواء سامر؟

رضـــا اللـــه

وبدأت ترفع الحجاب عن رأســها وتخفضه بيديها المرتعشتين وهى تنظــر بالمرآة وهى مرهقة دامعة العينين ومســحت بيدهــا بقايا دموع، وتركت المرآة وجلست لتفكر بهذا الشعور الذى انتابها لأول مرة، شعرت بأن هناك شــيئا مهمــا ينقصها، ومهما أخذت المزيــد من الدنيا ترغب بالمزيد، وكلما أخذت المزيد تشعر بالنقص، وقالت لنفسها: إنه البحث عــن الدنيــا، دوما تهبك الحزن، فلماذا انتحر مــن خضعت لهم الدنيا وعشــقهم الملايين؟، أين من كانوا يضحكــون بالأمس؟ أين متعة الحياة مــن لحظة واحدة، لحظــة خروج الروح؟ ولحظة الســؤال من الملائكة؟ لمــاذا يبكى الناس حينما يتذكرون صباهــم؟ أليس لأنها كانت لحظات وانتهت؟ ولماذا يكون الإنســان ســعيدا بلا جنــون حينما يصلى أو يقرأ القرآن، ولا يندم أو يتحسر حينما يتذكر تلك اللحظات، وحينما يخشع باكيــا بالعبادة يبكى بــلا اكتئاب وتلمس النفس راحة لا يدركها إلا من تذوقهــا، ويمتلئ وجهــه فرحة ونورا... لماذا يهــرب كل المكتئبين من علاجهم؟!.. لماذا يغرقون فى سبب اكتئابهم... دنياهم؟!

الصـــــراع

وفجأة ظهرت أمامها فتاة أخرى بالمرآة، ليســت هى ولكنها تعرفها جيــدا، إنها فتــاة قتيلة ملقاة بغيابة الطرقــات بالليل الدامس، وما أن رأتها حتى هربت من المرآة وهربت من الحقيقة وخرجت تســير هائمة

لا تقصد مكانا أو أرضا، وظلت تتأمل ما حولها ولأول مرة تشعر بشيء ما بنفسها... إنه صراع.

بدأت تشعر أن ملابسها تخنقها، وتذبذبت فلم تعد تعرف ما تريد؟ إنها تحب أن تبدو منطلقة تحب الحياة وتحب أن ترضى ربها، ولكن من أورثنا فكرة أن الحيوية والانطلاق تأتى من هذا المظهر أو الأناقة تأتى من تلك الهيئة؟ هل هى كتابات أم صور وأفلام علمانية ترفض الدين تشربناها واستقيناها أكثر من قرآننا وسنتنا دون أن نشعر، فأصبح النموذج الغربى هو المفضل فى الشكل والجوهر، فأصبحنا مذبذبين لا ندرى أننتمى إلى هؤلاء أم إلى هؤلاء؟، نتحرج من أفكارنا وخلقنا وننبهر بالانحلال، وإذا ما انبهر الآخر بما لدينا من تحشم وطهارة تعجبنا، وإذا ما انتقصنا أصاب الشك أنفسنا!

متى نتخلص من التبعية ؟ متى يتخلص العالم من اتباع بيت أو عدد من بيوت الأزياء بحجة أنهم يفهمون أكثر؟ اليوم شعر قصير وملبس طويل وغدا ملبس طويل وكم قصير لدرجة أن الأمر وصل إلى حالة من الهوس فتجد أحيانا شكل العرض مثيرا للشفقة والضحك أكثر من أن يكون مبهرا، وكأن مصممه مجنون لديه هوس بالعرى، إمكانيات هائلة وعارضات استغللن ما وهبهن الله من جمال فى معصيته كل هذا لترويج فكرة خاطئة منذ ميلادها، ولو استغلت تلك المواهب والإمكانيات لصنع ملابس محتشمة لأعطت نفس الانبهار دون المساس بالطهارة والعفة، وهل يجب أن تتعرى المرأة أمام كل الرجال، من أجل رجل واحد؟ لكن لا يجب أن ننقد تلك الأمور حتى لا نتهم بالتخلف، وعدم قبول الآخر

أمــا إذا انعكــس الأمر أى إذا تم نقد ما لدينا مــن طهارة وعفة اعتُبرت حرية رأى.

* وانفض العــزاء وغادر آخر المجاملين مع وداع والدها، وأصبحت اليوم أكثر ضعفا وابتعدت البقية الباقية، وتحدثوا فى وجهها بما كانوا يقولونــه مــن ورائها، وعلمت للمرة الأولى أن مــا أخفته عن الجميع... يعلمه الجميع.

فقد كانت تســمع الحــوارات عن المعتقل وعن التهمة وهى جالســة بالعزاء، وما أن أتى ســامر حتى رفعت رأسها ناظرة متأملة إياه، سائلة نفسها هل يعلم؟

..وانفــض العـــــزاء

وانفض العزاء وعرض سامر خدماته بصورة مستعجلة وشكرته والدتها وغــادر، ولم تكن المرة الأولى التى يتعجل فيها ســامر الذهاب فقد تكرر هذا الأمر فى مرض والدها الذى لم يأت إليه ســوى مرتين متباعدتين، لعلــه كان يتهرب من التزامه تجاه والدها، لعله كان يتخفى من التزامه تجاه رجل يموت!

إنها تتذكر والدها وهو يغالب نفســه فى مرضه طالبا منه أن يعجل بالزواج قبل وفاته، وحينما أخذ يماطل خرجت من الحجرة وخرج سامر وراءهــا ولكنه ما أن اقترب منها حتى ابتعــدت ودخلت حجرة والدها وجلست بجواره وبعدها فتح سامر الباب فتحة صغيرة ناظرا إليها نظرة مودع وهى تنظر إليه نظرة قلق. وكانت تلك المرة الأولى التى شعرت فيها

بتخاذله، ومرت بعدهـا أيام قليلة وتوفى والدها، ولكنه منذ ذلك اليوم وهو يتهرب من عينيها مرة أخرى.

الحجـرة الفارغـة

ودخلـت حجـرة والدها مرة أخـرى ولكنه تلك المـرة لم يكن بها، وتخاذل سامر بوضوح تلك المرة، وفتحت الضوء بيدها المرتعشة الخائفة، وشـعرت بشعور تعرفه جيدا، إنه البرد، إنه الخوف، إنه الوحدة، إنه الحزن، إنه الشعور بالشوق لوجوه تريد أن تراها، ولكنها لن تراها.

وتذكرت الزنزانة السـوداء، وشـعرت بها تطوقها، إن الشـوق كاد يقتلها، لقد كانت تشـتاق إلى الجميع بعنف، عاشـت سـنينا وحيدة لا تعـرف الكثير عن أسـرتها،... كانـت ترتعد خوفـا ألا ترى أحدا منهـم ثانية.. وجه أبيها الذى أصابته السـنين بالضعف... نظرة أمها الحزينة، عاشـت سنوات وسـنوات فى قلق وحرمان، خسرت كثيرا، خسرت أعواما عديدة من شبابها القصير.

اعتـادت الوحدة... تعلمت الصبر... قتلهـا الحزن... تذكرت تلك الوَحشـة، خافـت منها، انكمشـت بأحد الأركان ترتعش، أمسـكت ذراعيها، أغلقت عينيها، لتهرب من الحقيقة ولكن لا سبيل إلى الهرب تلك المرة، فالحقيقة حاصرتها فرأت وهم الحب الذى تعلقت به، رأت زيف الغطاء الشفاف الذى تغطت به، ورأت الموت... رأت الموت ورأت الحقيقـة التى تذوب فى لحظتها كل لحظات الوهم، إنها اللحظة التى يفـترق فيها الجميع، بأمر إلهى إنها لحظة خروج الروح من الجسـد،

إنه أمر يعجز أمامه كل البشـر، إنها اللحظة التى يواجه فيها الإنسان أعمالـه ويمر فيها مسلسـل العمـر فى لحظة والتى ينـدم فيها عن كل لحظـة هرب فيهـا من دينه وبعد فيها عن ربه وهـا هو ذا الآن يذهب إلى الله عز وجـل وحيدا بالنهاية، إنـه الامتحان الأعظم، الذى يصبح أمامه كل البشر صغارا، حينها سألت نفسها ما الذى نضيع فيه عمرنا؟ متع لحظية وأهواء، لماذا ارتبطت حياتها هذا الارتباط المرضى بسامر؟، إن حياتهـا بدونه خاوية حزينة، إنها تريد أن تهرب من أحزانها، إن موت والدها وما مرت به يخنقها، إن سامرا بالنسبة لها كالدنيا بالنسبة للبشر، يتلهون بها عن الحقيقة، ويحلمون بها وما حلمهم إلا سراب.

كانت حينما يشـتد بها الاكتئاب والوهـن بالزنزانة تتذكره، واليوم أيضا تتذكره، كانت دوما ما تتلهى بوهم حب سامر عن حقيقة وحدتها، كما يتلهى الإنسان بالدنيا لينسى حقيقة الموت.

خوف وهروب (حقيقة.... وموت)

وأطبـق الحزن على صدرهـا فهربت من حجـرة والدها وهربت من الحقيقة، إنها لا تريد أن تدخلها، إنها تخشى هذا الألم.. ألم الحقيقة، ألم الفقد، ألم الخسـارة، يجب أن تهرب من كل تلك الحقائق القاسية من الموت، ومن المعتقل، ومن تخاذل سامر.

وخرجت إلى الشـرفة فرأت السـيارة السـوداء بأحد الأركان بجوار منزلها، وشعرت بأمر ما لم تفهمه، وظل راكب السيارة يتطلع إليها من ركنه المظلم، ودخلت بهدوء وفتحت إيميلها وأخذت تقلب فى رسـائل

قديمة أتتها من راسل مجهول كأنه يعرفها وأخذت تتنقل بين أكثر من نافذة، لترى صاحب السيارة السوداء ولكنها لم تره وسألت نفسها وهى تنظر بحيرة فى تلك الليلة هل من الممكن أن يكون هذا الشخص الذى يتبعها هو كاتب الرسائل؟ وظلت السيارة واقفة حتى دخلت نهى، وأغلقت الستارة، فسمعت السيارة تغادر ففتحت الستارة وراقبتها وهى تغادر. ودخلت عليها والدتها فلاحظت الحيرة على وجه ابنتها فسألتها ماذا هناك فقالت لها: تأتينى رسائل عديدة من شخص كأنه يعرفنى، وهناك سيارة أراها دوما واقفة هناك.

فقالت لها والدتها: أمر عجيب ولكن لا تهتمى.

فتمتمت نهى: لا أدرى لم أهتم لعلنى أحتاج لهذا الظل تحت الشجرة هناك.

وأتى سامر وسألته: أين كنت تلك الفترة؟ فأجابها: لقد كنت منشغلا بالفترة الماضية، وبدأ يتحدث عن مشغولياته وأعماله، وهى تتطلع إليه ببرود، قائلة ألا تشعر بما مررت به بالأيام الماضية؟ فرد عليها: إنك لا تعلمين كيف هى مشاكل العمل وأخذ يدور فى محور حياته، وبدأ بروده ينتقل إليها فظلت صامتة لا تجيب عليه حتى قالت له: ما الذى جعلك مشدودا إلىَّ؟ فقال لها: مظهرك الطفولى. فقالت له بحدة إننى لست طفلة بريئة، إننى شابة تعذبت كثيرا هل تحكم على الأمور من المظهر دوما؟ فقال لها: لماذا أنت متضايقة إلى هذا الحد؟ فأجابته: لا شىء. وانتهى اللقاء، ومرت الأيام، ولم يتصل، كانت تجرى على التليفون لتحادثه ثم تتراجع، ظلت تتأمل الحياة القصيرة لكل منا،

ظلت أياما تنتظره ولكنه لم يأت، أمسكت التليفون كثيرا منتظرة اتصاله، حتى فقدت الأمل، تمكث بالساعات الطوال تنظر إلى نمرته إلى رسائله ويدها تريد أن تخونها وتتصل، ولكن سرعان ما تلقيه بعيدا بنوبة من نوبات البكاء، كانت تجلس بالساعات تبكى بشدة شاعرة بالخواء قائلة: لماذا تتركنى دوما وحيدة؟ لماذا تتركنى الآن وحيدة،؟ لماذا لا تشعر بى؟ لماذا تبتعد فى أقسى اللحظات؟ يا لك من قاس، انتظرته أياما وأياما ولكنه لم يأت، كانت تلك الفترة من أقسى لحظات العمر، كانت تقضى أوقاتا طويلة دون عمل شىء، ولا تستطيع أن تعمل، الحياة قصيرة وقد ملتها اليوم، لا جديد، الأيام تشبه بعضها، إنها تشعر بالاختناق، قامت وفتحت النافذة لتستنشق بعض الهواء، لكن وإن استنشقت كل الهواء فلن يكفيها، وأسقطت دمعة حارقة وهى تقول لنفسها لقد انتهى....

* أيهما أقسى؟ الفراق الأول أم الفراق الثانى؟ الإهمال منذ البداية؟ أم الإهمال بعد الاهتمام؟

النهايـــــة

وفتحت ببطء الدرج، وأخرجت منه علبة الخاتم بهدوء وخلعت الخاتم ونظرت له نظرة مودعة ووضعته بها بسكون الحسرة وفتحت باب المنزل، وتوجهت لمنزلهم المقابل وضغطت الجرس وتنفست الصعداء، وفتحت الباب والدته التى تفاجأت لحضورها ونظرت إليها نهى بصمت المواجهة وتعلق نظر كل منهما بالأخرى، وكان اللقاء الأول بينهما منذ أن خرجت نهى من المعتقل، كانت نظرتها تحمل قوة وغضبا وحزنا

وتحديـا، وأدخلـت يدها بالحقيبـة وهى تلملم ما تبقـى لها من كرامة وأخرجت العلبة وسلمتها إياها وهى ترفعها إليها، ناظرة لها بعزة وكأنها تسـلمها بغيتها وتقول لها بيدى لا بيد عمرو، وأطرقت الأخيرة رأسـها بالأرض ودون أن تنبس بكلمة غادرتها نهى، كما غادرت حياتهما.

ونزلت السـلالم مسـرعة وهى تقهقه ببكاء تحاول أن يكون مكتوما، وتماسـكت على مشـارف باب العمارة والذى ما أن خرجت منه مخلفة قلبها الدامى وراءها والتى لم تشـعر به حتى أغلقت باب شـقتها بقسوة وراءها، وعندئذ علا بكاؤها قوة ساقيها فوقعت على الأرض من أثر البكاء.

وعاد سامر فتلقى الخاتم ببرود، لم يحزن، وخرج إلى الشرفة، ينظر نحو منزلها بصمت.

وانتظرت أياما منه ليرد ولكنه لم يتصل، أو يتحدث إليها، وتركها مهملا لها، وأتت الظروف لتحارب ما تبقى من حب إن تبقى حب!، ولتدهـس نهى تحت أقدامهـا!، وبعد أيام وأيام كانت تسـتيقظ فيها علـى صوت صراخهـا، وتبكى مع كل صباح وكانت تجلس متحسـرة لسـاعات، أتاها استدعاء من الأمن، والذى يجب أن تنزل بناء عليه فى وقتـه لإجراء التحقيق، فى حادثة إرهابيـة، ومع صراخ والدتها، وفى منتصف الليل أخذت للتحقيق.

الطيـــف

وبأمـن الدولة دخلت خائفة، لا تعلم لم التحقيق، أو لم هى هناك، جلست لساعات حتى أعياها النوم، وبعدها تم طلبها للتحقيق، ودخلت وكان التحقيـق حادا وكانت ناقمـة، كارهة، تتمنى الانتقام، تتمنى أن

تصرخ بوجوههم، وأن تقوم هى بالتحقيق معهم، ولكن السلطة جعلت الجانى محققا، والمجنى عليه متهما، وفجأة أتى تليفون، انفعل بناء عليه المحقق، وقام على إثره إلى باب الحجرة لاستقبال أحد ما رفض الدخول فالتفتت تتطلع إلى هذا القادم الذى اقتحم التحقيق معها، لم تكن الرؤية واضحة، فكان الباب شبه مغلق، ولكنها لاحظت هيئة هذا القادم وما يرتديه، كان يرتدى بذلة زرقاء، كان طويلا وعريض المنكبين، أما وجهه فلم تره، وبعد دقائق دخل المحقق وأوقف التحقيق وقال لها بلهجة محترمة تستطيعين الانصراف، يبدو أنك تهمين أشخاصا مهمين، فسألته بتعجب: خلاص؟!

فأمسك ورقة التحقيق وهو يقطعها بضيق: خلاص. واستطرد وهو يشير لها بالرحيل قائلا: مع السلامة.

وغادرت المكتب مندهشة، سعيدة، وتنفست الصعداء وكالعصفور الذى فك أسره من لحظات سارت بسرعة، وهى تفكر من هذا الذى أنقذها من هذا الجحيم، ولماذا؟ ولماذا لم يعاونها من قبل ويعاونها الآن؟ وهى تسير بالممر تذكرت ممرا كانت تقف فى بدايته وشبح فتاة تسير بآخره، وبينما كانت تسير مر طيف صاحب البذلة الزرقاء من مكتب بالجوار فلم تلحق أن تراه، فمر من أمامها فى لحظات وأصبح يسير خلفها وهى تسير بالاتجاه المعاكس خلفه، ولم تفكر كثيرا قبل أن تلتفت لكى ترى هذا الخيال أو الشبح الذى مر أمامها ولكنه لم يلتفت واختفى عن ناظريها. وفى تلك اللحظة تذكرت طيفا آخر مع فتح زنزانة صغيرة الحجم مظلمة بالجبل وهى نائمة مريضة على

أرض صلبــة، ودخل ومعه بصيص ضوء وهو يقول لها بعطف: اصمدى يا نهى، قريبا ســتنتهى معاناتك، وغادر، وغــادر معه بصيص الضوء الذى دخل معه وأغلقت الزنزانة.

وعادت إلى شــارعها فرأت سامرا فنظرت نحوه ولكنه لم ينظر إليها ومــر من أمامها وكأنه لم يرها، فتجمــدت عيناها وظلت تهوى بالدموع دون أن تشعر بأى شىء حولها، ولفها جليد الصدمة، فتجمدت مكانها لدقائق، وسرعان ما أمسكت ذراعيها وتحاملت على نفسها حتى صعدت إلى منزلها الذى عمت به الفرحة ما أن دخلته، ولكنها لم تشــعر بشىء حتى وصلت إلى باب الشرفة فأخذت تغلقه بشدة.

العقــد الخانــق

انكمشــت بســريرها، أحاطت بها الأحزان كعقد خانق التف حول عنقهــا وعصف بها تلك المــرة، ولأول مرة بعد خروجهــا من المعتقل تتذكر ما حدث بالمعتقل، وبدأت تكتمل الصورة لديها، وشــعرت بكل ما مضى الآن، تذكرت ما نســت: شــعرت بالعجز، شعرت بالحسرة على كل ما مضى، لم تحتمل الألم أمســكت برأســها أرادت أن تنتزع منها كل الصور.

خرجت، ســارت وسارت وســألت نفســها لماذا الآن؟ اختنقت من الماضى القريب الذى ظنته بعيدا... ما هذا الوهم الذى أنساها كل تلك الأمور؟!.. ما هذا الوهم الذى أنســاها نفسها؟!.. إنه لعنة وليس حبا. وأخذت تحادث نفسها لماذا سامر؟ لماذا؟، لقد ألقيت معك كل الأحزان

ونسيت الأعباء ولم أكن وحيدة وكنت قوية، كنت مصدر قوتى بالأمس، ومصدر ضعفى اليوم، معك كانت الأعباء أحلام، والآن تذكرك هو أقسى الأعباء، حبك بالأمس جنة واليوم نار.

وعـادت إلى المنزل بعد أن أنهكهـا التعب، وعادت ولم تنم وقضت ليلتهـا مبهوتة ما بين الصمت القاتل والدموع التى تذرفها عيناها رغما عنها، وعند سماع أذان الفجر قامت بتكاسـل لتصلى فقد كانت منهكة تماما، وصلـت مع والدتها جماعة، وفى دعـاء القنوت دعت والدتها بحمـاس يارب اصلح حـال ابنتى نهى واكرمها يارب، وشـعرت بعد الصلاة بقوة عجيبة بالنفس والجسد، لقد كانت بين يدى الله، إنه أمر لا يسـتطيع المرء وصفه، أنت مع خالقك الذى خلقك فسـواك فعدلك، إنـه قرب يعطى النفس قوة خالصة، لمـاذا بعدت عن تلك الروح وتلك القـوة فى تخبطها بالدنيـا. إنها تكلم الله عز وجـل والله جل جلاله يكلمها، إنها حلاوة لا يشـعر بها إلا من اقترب من الله بإخلاص ولو للحظات، إنها متعة أفضل من أى متعة وحب يعلو أى حب، إنه حب يمنح قوة لا ضعفا.

وما أن أشـرقت الشـمس حتى دخلت للنوم مع والدتها بعد حوار هادئ كالنسـيم الرطب فى يوم حار فنامت فى سـكينة وهدوء بجوار والدتها صاحبة الوجه الهادئ الحانى، واستيقظت بعد الظهر وتناولت الفطـور مـع والدتها التى قالت لها: اخرجى ابحثى عن مسـتقبلك، فردت عليها: إلى أين سأذهب؟ فأجابتها: اخرجى اعملى أى حاجة، قالت لها فوقى بقى لنفسـك ودورى على مستقبلك، بلاش الانهزامية

اللى أنت فيها دى، فخرجت هائمة على وجهها حتى وجدت نفسها ذاهبة إلى منطقة معينة، تعلمها جيدا، والتى أغمضت عينيها حين رأتها من قبل، وذهبت إلى جمعية تعلمها جيدا، وسألت عنها فعلمت أن غلقها كان وراءه فتاة فضحت أعمال الشركة الأجنبية المطبّعة مع إسرائيل والتى تقوم باتخاذ ستار تقديم العون للمناطق العشوائية لتستغلها أسوأ استغلال، وبأنها ممولة من الخارج مستترة تحت شعارات إنسانية وقيامها بأمور عدة تخل بأمن البلاد كإشاعة الفوضى من خلال تجنيد بعض البلطجية وإثارة الفتن، وعلاقتها المشبوهة بإسرائيل وقيامها بتعقيم النساء، وخطف للأطفال، وتجارة الأعضاء، عندئذ تساقطت دموعها رغما عنها، ولأول مرة شعرت أن الأمر استحق العناء وتذوقت أخيرا طعم النجاح وإن لم يشعر به أحد، لقد نصرها الله بحرب كانت بها ملثّمة، وخرجت فرحة ضاحكة تطير بالشوارع، وشعرت أخيرا أن ما ضحت من أجله قد أثمر نتيجته، وفى تلك الليلة أتاها إيميل كما أتى مجموعة كبيرة غيرها عن طلب وظيفة فى تخصصها، فقالت لنفسها كأن الوظيفة أتت بميعادها، وذهبت متحمسة، وكانت المقابلة:

ودخلت إلى المكتب الكبير، والتى ما إن رأت صاحبه حتى انتفض واقفا، ورحب بها بشدة وكأنه كان بانتظار أحد الأصدقاء، فغلب لديها التعجب من الاستقبال على السعادة بشعورها بقبولها بالوظيفة، وأخذت تتحدث عن مؤهلاتها: خريجة كلية إعلام قسم علاقات عامة، وعملت بجمعية س المتخصصة بإعمار المناطق العشوائية، فقاطعها: تلك التى

أغلقـت منذ ثلاثة أعوام تقريبا، فقاطعته وهى تسـأله بعد أن رأى لمعة بعينيها: ماذا حل بتلك الجمعية؟ ولماذا أغلقت؟، فابتسـم بلؤم قائلا: ألا تعرفـين؟، فاصفـر وجهها وهى تقـول: لقد تركتها منذ سـنوات. وتحسست شعرها بتوتر وأخفضت رأسها وهى مترددة هل تتحدث أم لا عن فترة سجنها؟، فقطع لديها التوتر قائلا بعطف وجدية: العمل سيبدأ إن شاء الله بعد شهر من الآن، لا تقلقى يا نهى، قالها وكأنه يعرفها تماما فالتفتـت إليـه دون أن تتكلم متعجبة، إنها لم تخبره باسمها، فأشـار مبتسـما إلى الملف الذى قدمته وعليه اسمهـا، فنظرت إليه بتفهم برغم تسـاؤلها وشـكرته وغادرت، وبعد أن غادرت رجع بكرسـيه إلى الوراء بارتياح وهو يفكر فى أمر ما ثم فتح درجا بمكتبه به خبر: شـهادة فتاة تغير مسـار قضية رنا فاروق، ورجع بذاكرته للوراء وتذكر ليلة ضبابية، كان يسألها بها:

– هل أعطتك أوراقا؟

– فأجابت نعم، وأنا أردت أن أقوم بالشهادة...

– فقاطعها بحسـرة: ماذا ستفعل شـهادتك أمام هذا الكم من الأدلة التى تم طمسـها، خاصة أنها لم تقتل بتلك الليلة، وهناك شهود رأوها باليوم التالى مخدرة، ومن المعروف أنها تعمل معهم منذ فترة، ولن يصيبك سوى أن تتورطى بالأمر كما تورطت.

ثم تذكر مفاجئته بها وهى تدخل من باب قاعة المحكمة وهى تقدم مستندات وأوراق وتسجيلات وصور، وسألها القاضى مباشرة: وهل كان معك إذن النيابة قبل التسـجيل، فأخبرته: لا وأنا أعلم أن التسجيلات

قـد لا تعـترف بها النيابة ولكنهـا توضح أمورا بالأوراق والصور سـيتم الاعتراف بها، استطردت قائلة بشجاعة:

إنْ كنت انتظرت إذنا من النيابة، كانت ستخفى كل تلك الحقائق، لقـد اخترقـوا كل الأجهزة، لقد كنت بالبداية أدافع عن شـابة تلوثت سمعتها، فوجدت نفسى أدافع عن مجتمع تلوثت سمعته بأكمله.

التبعيـــــة

وسـارت بالشـوارع وهى سـعيدة، بعد أن أخذت جرعة كبيرة من الثقة، اسـتردت بها فتاة تناسـتها، إن النصر له طعم آخر مختلف عن الهزيمة وسـألت نفسها: إنها ليسـت مجرد فتاة سطحية بسيطة، إن بأعماقها إيمانا هربت منه، وأراد القدر أن تمر على شـاطئ النيل بنفس المـكان الذى كانت تقابل به سـامر، و تذكرت آخر لقاء فى ذلك الليل الحزين، وتذكرته وتذكرت تلك الأيام، وانقبض قلبها بشـدة وشـعرت بسكين ينفذ إلى غصة قلبها. وتركت شاطئ النهر وجلست منكمشة على كرسى بالطريق، وتخبطت برأسها صورتها الجديدة بصورة الفتاة، بصور المشروع، بصور الناس، وانتهت الصور بصورة سامر وهو يتركها ويغادر، وقالت لنفسها: كلنا إمعة، كلنا نتبع بعضنا كالخراف نحو المذبح، لماذا تغيرت؟ هل لإرضاء سامر أم لإرضاء المجتمع الذى تنكر لها أم هو شعور بالنقص تكمله بمظهر جذاب؟

أشـفقت على نفسـها وهى تتحسس خصلات شـعرها الناعم وهى مسـترخية سعيدة وهى تسـأل نفسـها: وهل هى مختلفة فى ذلك عن

غيرها من الفتيات؟ أليست كلهن يشبهن بعضهن فى ذلك؟!.. الشباب يلهث نحو الأهواء والفتيات تتبع أهواءهن التى يرفضها بالنهاية الشباب الذى أضحى يناقض نفسه بين لهثه نحو الصورة الغربية التى فرضت عليه فرضا وبين تمسكه بجذوره! متى تنتهى تبعية المرأة للرجل بأن يكون ملبسها رهينا لذوقه، وأين الحرية فى ذلك؟، وأين ذاتها فيما تلبس؟ ومتى تنتهى تبعية الشباب والفتيات للذوق الغربى، الذى أعطانا صورة ترفضها جذورنا وتشتاق إليها أنفسنا التى لا تشبع وتطلب المزيد؟ متى نفرض ذاتنا نحن على الآخرين لا أن نتبعهم فنكون قشة تطير حسب أهوائهم التى تتغير؟ أم أن الضعيف يجب دوما أن يتبع الأقوى وإن كان على خطأ؟.

يوم جديد

وسمعت أخبارا أنه تقدم لخطبة فتاة أخرى، وفى تلك الأثناء قابلت سامرا صدفة بالسوبر ماركت وعلى عكس المرة السابقة، لم تنتظر أن ينظر نحوها فما أن رأته حتى أشاحت بوجهها، بينما ظل ينظر إليها، وغادرت مسرعة، وما أن عادت إلى المنزل حتى أمسكت الموبايل وظلت تنظر إلى نمرته وضربت على نمرته بتهور وسألته: ما رأيك أن نتقابل اليوم؟ فوافق، وجلست تفكر كثيرا حتى آن أوان اللقاء، وذهبت لتقابله، وبنفس المكان الذى أحبته كثيرا شعرت بمرارة وحزن لرؤياه، ولكن تبددت الأحزان لديها ما أن رأته، وبعد أن ألقى كلٌ منهما التحية على الآخر لاذا بالصمت لبعض الوقت، كان كل منهما واقفا يتطلع إلى

النهــر أمامه ثم نظر إليها بحب وشــوق: لقد أحببتك ولكن الظروف... ثم اســتطرد قائلا: يا ليت الأيام الماضية استمرت فأطرقت برأسها وهى تنظــر للمياة قائلــة: حينما نظرت إلى تلك النظرة ظننت أنها أنســتنى ما عانيت لســنوات، لقد كنت خاسرة وظننت أنى رابحة، إننى أبكى اليوم أكبر خدعة ووهم فى حياتى، إننى أتساءل اليوم هل استحقت تلك النظرة كل ما عانيت؟!

فقال: لقــد أحببتك... ولكن الظروف... وصمت للحظة واســتطرد قائلا: يا ليت الأيام الماضية استمرت، فردت باكية بعصبية أكثر: لماذا تصرح لى بذلك الآن؟ واختنق نفســها وهى تسأله: لماذا تقدمت إلى؟ لماذا اقتربــت منى وأنت ترفضنى؟ لماذا اهتممت وأنت تهملنى؟ ونظرت نحو الماء، لتخفى دموعها فأكمل:

– ليتك ظللت تلك الفتاة التى تقدمت لها منذ خمس سنوات.

فقاطعتــه محاولة أن توقظه كأنها تحاول أن تحيى إنســانا يحتضر: ولكنــك لم تحبنى آنذاك، كنت تحب تلك صاحبة المظهر واســتدركت بابتســامة ســاخرة وهى تنظر للنهر أمامها: بالأمس لم تكن تحب تلك صاحبة المظهر البسيط ولكنك كنت مستعدا للزواج بها، واليوم أنت تحب تلك الفتاة التى أمامك ولكنك لست مستعدا للزواج بها، وكلتاهما أنا.

وجلســت من هول صدمتها ورفعت رأســها إليه فوجدته قد غادر، فنظرت نحوه بحسرة وهى تودعه للمرة الأخيرة.

ابتســمت ســاخرة وهى ناظرة بعينيهــا الدامعتين تشــرب ما بهما من حســرة للنهر، تحدث نفســها: لقد أحببت العــين الغائرة، أثارك

اللغز، سحرك الصمت، أحببت وهم البراءة، لم تحب حبى، لم تحب ضحكى، لم تحب بساطتى، لم تحب نهى التى كان من المقدر أن تحيا معك وإنما أحببت شبحها الذى لم يخلق له أن يعيش معك! لم أكن لك منذ البداية لا بشعرى الطويل أو القصير، ولا بملبسى القديم أو الحديث. ما أمر به الآن لن يكون أقسى مما مضى، فإنى قوية بما يكفى وخلفته وراءها كما خلفها وراءه ومضت ترتطم بالرياح الشديدة التى تواجهها بالشارع العريض بجوار النيل، يتطاير فيها شعرها القصير الذى يريد أن يتناثر مع دموعها بالرياح، وفجأة دوى ارتطام شديد أمامها، أعجزها عن المرور، ورأت أمامها البوابة التى طالما حاولت التهرب من ذكراها: البوابة القديمة الرمادية الغامقة الحديدية تنغلق أمام وجهها... بوابة الزنزانة... زنزانة أمن الدولة.

..وانغلقت الزنزانة

سقطت على الأرض منهارة عاجزة عن المضى، تراها أمامها تحاول أن تتجاوزها ولكنها لا تستطيع، وجدت أمامها الحقيقة حين انتزعت من فراشها وألقيت فى غيابات السجن وكيف أهينت وذلت، وانتهكت حرماتها، ورأت الحقيقة التى تخفت عنها طيلة الفترة الماضية.. فترة الوهم الجميل، وهم الحب، وهم البراءة، وهم الطفولة، وهم المراهقة، الذى حاولت أن تنسى به الحقيقة التى عاشتها، وأيقنت أن المراهقة لا تستمر... الطفولة لا تستمر... السعادة لا تستمر... الحياة لا تدوم... وهم السعادة اللحظية لايستمر، وكلها أوهام يتلهى بها الإنسان عن

الحقيقــة... وكل منــا له وهمه الذى عاش لــه وبالنهاية تركه ومات، وفجــأة وجدت الحقيقة أمامها وسمعت هذا الارتطام الشــديد للزنزانة وهــى تغلق عينيها وتمســك ذراعيها وهى منكمشــة كأنها أمام وحش كاســر، الصورة التى هربت منها... الصــوت الذى هربت منه...حين ألقيــت فيها وأغلقــت الزنزانة وصفيت وحدها باكيــة مهانة محرومة مــن أهلها مــن أمها وأبيها، تتذكــر وجوههم المرعوبــة عليها، تتذكر ضعفهم، انكسارهم، ذلها وذلهم وهى تبكى بصوت عال بعد أن أوقعها البكاء على الأرض واستوقفتها صورة باب الزنزانة. نظرت للوراء تبحث عنــه بعينيهــا كطفل تائه عاجز يبحث عن أحــد والديه فى الزحام، نظــرت حولهــا دامعة العينــين خائفة من متاهات الزمــن الذى ألقاها بها، إنها خائفة، إنها مرتعدة أن تستمر وسط هذا الطريق المظلم، إنها تحتاجه، إنها تعتمد عليه، لقد بنت قصورا فوق أرضه الرملية، عندئذ اقترب منها صاحب الســيارة الســوداء، ولكنها لم تره، وظلت تســير والدموع متجمدة بعينيها، وســارت وهى تلملم نفســها ممسكة بيديها ذراعيها وســارت بهدوء بالطريق المظلم البارد على شاطئ النيل، المليء بســيارات مسرعة تســرق الأعمار، ذات كشــافات قوية تسرق الأنظار شــعرت بالوحدة، كانت خائفة كيف ســتكمل طريقهــا وحيدة؟ اليوم انتهت قصته، اليوم ســتكمل طريقهــا وحدها، اليوم بدأت تعرفه أكثر ولكنهــا تتألم...، إنها تحبه. وبينما كانت تســير أتت حافلة بإضاءة قوية، أشارت لها بالتوقف وركبتها، وظل يتطلع إليها من بعيد، كان الجو قارسا، الشوارع كانت جافة باردة، الحافلة تخترق بسرعة فائقة

الشـوارع الفارغة، كأنها تسوقها إلى عالم مجهول، الطرق تبرق بالمياه، تزيدهـا لمعة الدموع التـى بعينيها، وكان الجو باردا قارسـا، وبيدين مرتعشـتين أمسكت بشـال كانت تحمله وغطت به شعرها وهى تبكى بحـرارة.. إن البعد عن طاعة الله كان له أثر عميق جعلها تتخبط يمينا ويسارا، ليس مجرد أن يصلى الإنسان يكون القرب من الله، إنه طريق وارف بالأشـجار، إن المعصية تورث حزنـا يورث الحزن العظيم الذى قد لا ندركه ولكننا نشـعر به، وخانتها عيناها تبحث عن سامر ولكنها لم تجده وإنما رأت العربة السوداء.

المـــــــرآة

ورجعت منزلها، ورجع صاحب العربة السـوداء إلى منزله، ونظرت نهـى إلى المرآة، وألقى صاحب العربة السـوداء المفاتيح وألقى بنفسـه إلى أقـرب أريكة وأخذ يتذكرها، وتذكرت نهى كلام سـامر وهى تنظر للفتـاة التى أمامها بالمرآة بغضب، إنها لا تعرفها، إنها تتبعه، إن هذا الشـكل ليس شـكلها وإنما شـكله، إنها له، إنها غريبة عن نفسها، وظلـت تنظر لها بتحد لعلهـا تختفى ولكنها أبت أن تختفى، وعادت عاجزة إلى السـرير، وبدأت تتحسس شعرها ووجهها، إنه يحبه، إنه لـن يتركهما، وجرت نحـو المرآة ولكن ظهرت صـورة أخرى بالأفق، إنهـا ملامحها القديمـة، نظرت إلى مرآتها تتخبـط داخلها صورتان: واحدة لفتاة حزينة نحيلة ذات شـعر قصير والأخرى لفتاة بسيطة ذات شعر طويل، تتخبط الصورتان تأتى هذه وتذهب تلك، أيهما أحب؟...

أيهما أراد أن تكون، أيهما ستحظى بـه؟ وتأتى هذه وتذهب تلك... لـن تنتمى تلك الصـورة؟ من تكـون؟ وبدأت بالبكاء الـذى أتى على استحياء ثم تصاعد بشدة ثم بشدة أعظم، إنها تشعر بغضب جم من تلك الصـورة التى صنعها، إن ملامحها تذكرها به وبالآلام التى مرت بها، أى الصورتـين لها؟ إحداهما كانت هـى ورفضتها من أجله، والأخرى لا تعرفهـا كونتها ظروف قاسـية، إنها حبيبته التـى ألقاها من أجل صورتهـا الأولى؟ أيهمـا أراد؟ أيهما هى تريد؟ إنها لا تريد شـيئا إنها تريده هو، هنا هوت على الأرض، لكن صورتها الثانية ظلت على المرآة وبدأت تتسـلل لأعلى لتراها، وما أن رأتها حتى قالت: لماذا؟... لماذا؟ واشـتد البكاء بهسـتيريا: لماذا؟ وتأملت بهـدوء... بصمت ثم أغلقت عينيها مودعة وذرفت دمعتها الأخيرة...

الابتسامـــة

وأتى يوم زفافه... جرت وجرت، لكن ما بها لم يهدأ، عشـقته... أحبته بجنون... نسجت له من الخيال بطلا... وعادت للمنزل وجاءت الزفة، وكان صوت الدفوف عاليا ولكنه لم يكن أعلى من صوت نبضات قلبهـا، النـار بقلبها تضىء الحى بأكمله، ووقفـت وراء النافذة: نافذة الأحلام بالأمـس والأحزان اليوم، المكان مزدحم بأناس كثيرين، تحرك رأسها يمينا ويسارا حتى تراه.

خافت أن تشعل الضوء، تخفت هى ولم يكن لها أن تتخفى، وتباهى هـو ولم يكن له أن يتباهى، الموسـيقى صاخبة، الأنوار تملأ الشـارع،

السيارات كثيرة، وهبط من منزله ورأت ملحمة الناس ملتفين حوله بشدة وتذكرت حشـدا آخر لا يشـبهه ولكنه مثله: نفس الالتفاف من البشر، نفس الأضـواء، نفس الغدر، نفس الكذب، نفس النفاق... وتسـاقطت دموعها وشعرت بنفس الوحدة، نفس الإهمال ونفس الألم ورجعت للوراء للمـرة الأولى لتتذكر رغما عنها ذلك اليوم من الماضى، كان الجمع ملتفا حـول امرأة أجنبية وكانـت تقف بعيدا، وتلك المرأة فى المركز وحولها الجمـع العقيـم يحتفلون بميلاد كذبة جديدة شـارك بها الجميع حتى هى، وفى تلك الليلة ارتدى سـامر أفضل حلية له، كان وسـيما وكان المكان مزدحما، انتقلت من أكثر من نافذة حتى تراه وانتظرت انتظارها الأخير خلف زجاج النافذة الشفاف الأبيض... وفجـأة رأت ما لم تنتظر أن تراه... ما لم تتوقع أن تجده... رأت ابتسـامة... ابتسـامة لم ترها من قبل على وجهه.

الزنزانـــــة

هوت على الأرض... أمسكت ذراعيها... صرخت بأعماقها، ما هذا الحب الذى عاشـت به وله؟ ما هـذا الوهم؟ صم صوت بكائها أذنيها، عمت عينيها الدموع، لم تعد تسمع صوت الدفوف، لم تعد ترى الأضواء، ظلـت تبكى على الأرض الباردة للحجرة المظلمة، وما أن أنهكها البكاء حتـى رفعت رأسـها لتراها أمامهـا وتحيط بها، نفـس البرودة، نفس الظلمة... حجرة الزنزانة التى مكثت بها لسنوات.

..وأغلقت قضبان النافذة

وأغلقت نافذة الأمل... نافذة الحب... نافذة العشق... والتى ظلت لسنوات مصدرا للفرحة والسعادة وأضحت اليوم مصدرا للشقاء، هو والشارع والدنيا التى أحبتها، كان الليل مظلما، أنارته أنوار الفرح وأضواء السيارات ووسط تلك الأنوار غادر وسط الزحام لآخر مرة تراه، حركت رأسها باستهتار مع آخر دمعة فى لحظة قاسية من أقسى لحظات عمرها، كيف ستعيش اليوم؟ إلى أين تذهب؟ إن حياتها انتهت، لقد أهانها إنها لا تلائمه اليوم، خطب فتاة تشبهها بالأمس ولسخرية القدر منها ومنه أن سماتها نفس سماتها بالماضى، ذات شعر طويل وعينين واسعتين، بسيطة، من أسرة متوسطة ولعله وهو معها سيظل سارحا بها، ابتسمت بسخرية، يا للدنيا، نسعى إليها وهى تسخر من كل صاحب حاجة فيها، من يبحث فيها عن الحب يقتله الحب، ما نأخذه اليوم يذهب به الغد، وفرحة اليوم حزن الغد، ألفت مظهرا لا يلائمها من أجله، ولم تشعر بالمعاناة بسببه، ألبسها الوهم حبا لم يكن مقدرا لها يوما، وبينما كانت تبكى دخلت والدتها قائلة لها: لا تبكى سينتهى هذا الأمر قريبا، سيعوضك الله خيرا منه، ونظرت لها بعطف قائلة: لازم تعيشى، فبكت قائلة بانهيار: أعيش... أعيش إزاى؟ لقد عشت أعواما وأعواما فى وهم كبير لقد حطمنى أكثر من أى شىء، لم أعد أقوى أن أعيش... مجرد أن أعيش، كل شىء انتهى. ووافقتها أمها فيما تقول فلا مجال لتكذيبه. وأكملت نهى وهى تقهقه بالبكاء لقد عشت سنينا وراء القضبان، وكان الجميع يعلم، إن

القضبان كانت دوما أمامى، معى حيثما أسير، هنا داخل قلبى، وإنما عشتها حينما تهربت من حقيقتى، حين أخفيت نفسى فى ثوب ليس ثوبى، حينما تعريت من حقيقة مشرفة من أجل إرضاء غيرى، لقد رفضت نفسى قبل أن يرفضها غيرى، وبكت وهى تقول: إننى لم أنس ما تعرضت له ولكنى تناسيت همومى، وأن أحيى أعواما ضاعت، وحبا خاسرا... أردت أن أعيش كطفلة أو مراهقة ولكن الدور الذى عايشته لم يناسبنى.

على الشاطئ

وخرجت إلى شاطئ النهر وحيدة تلك المرة، لقد أتى اليوم الذى فرق كلا منهما للمرة الثانية لكن بقسوة أشد، لقد تخلى عنها، شعرت بكرامتها تهان أمامه، شعرت بالمذلة إلى جواره، شعر بضعفها ولم يعجبه، اليوم انتهى حبها، اليوم عرفت من كان، وما أصبحت عليه، إن دنياها انتهت اليوم، ماذا تفعل؟ إنها لا تطيق ذلك الألم لا تطيق تلك الدنيا، ماذا تفعل؟ إنها تشعر بالضياع، من أين تستمد قوتها، وامتزجت عيناها اللتان تبرقان ببريق الذهب مع الشمس تتطلعان للمياه الجارية وهى تتذكره منذ اللحظة الأولى، سامر شاب مظهره تحلم به الكثير من الفتيات، لايبحث إلا عن الملائم له، أنانى ولكنه ذكى قدر استطاعته ليخفى ذلك حتى عن نفسه، إنه رمز لمجتمع ارتدى ثوب الندالة من سنوات، إنه لم يحبها يوما، لا بالشعر الطويل ولا بالشعر القصير... لا بعينيها الواسعتين، ولا بعينيها الغائرتين.

إنه لم يعرفها يوما، توقفت عن التذكر وأمسكت رأسها فجأة قائلة: يا له من قاس... يا له من جاف. كان هذا بعد شهور لتركه إياها، لم تصل إلى هذا القدر من الفهم باليوم الأول، بل احتاجت لفترة، ببدايتها كانت تسير بالشوارع لا تطيق أن تجلس، وداخلها بركان تخاف أن ينفجر، فيحرقها ويحرق من حولها، لقد أتى اليوم الذى أصبحا فيه اثنين بعد أن كانا واحدا، وتحولت متعة الحب إلى ألم الكره ورغبة الثأر والانتقام... وبعد الانسجام أتى التحدى، وإما أن تستمر بلعبة الحب والكره وإما البعد عن المحب وعن المكان وعن النفس أحيانا، وتتيه عن قلبها حتى تلقاه فجأة فتصاب بالحزن وخيبة الأمل. ثم لحقها أيام كانت فيها عاجزة عجزا لم تعلم مثله من قبل من فقدان الثقة والدمار جلست فيها أياما عديدة على كرسى لا تعمل شيئا ولا تحب أن تفعل شيئا وأصابتها برودة شديدة بجسدها برغم أنها كانت منذ أيام دافئة، كانت تبكى كل يوم لساعات عديدة فى ظلمة غرفتها، وكانت تستيقظ ببرود ليس لديها رغبة فى شىء، لا تدرك ولا تريد أن تدرك شيئا وسيطر عليها شعور أنها لا شىء وجلست أياما وأياما سارحة محطمة، مبهوتة لا تفعل شيئا سوى شرب الشاى، كوبا وراء كوب، تتشربه دون تذوق لا تفكر بأمر إلا هو، كأن كأس خمر أذهب لبها وأصابها بشلل بالنهاية، كانت تشعر بأنها تافهة، بأنها مهملة ومهملة كأن دنياها توقفت عند قدميه.

البنيان الهش

ومرت الأيام ولم تعد تتذكر سوى الألم الذى خلفه وراءه كما خلفها وراءه كأنها كم مهمل، إنه لن يتألم كما تألمت لقد كان هذا قراره.

حبهـا كان قائمـا على بنيان هـش، على مظهر غريـب عنها منذ البداية، لعلها لم تشـعر بتلك الإهانة حين تركها المرة الأولى، لماذا؟ هل لأنهـا تغيرت من أجله؟، أم لأنها عصت ربها وأطاعته منذ أن تعلقت بحبـل أهوائه، الذى التـف بمصيرها ليخنقه، احتـارت مع تذبذب شـخصيته لحبه أمرا واختياره أمرا، احتـارت لإرضائه ولم يكن فرضا عليها إرضاؤه، مسـخت نفسـها من أجله، نست نفسها ككيان مستقل وليس تابعا لرجل، ترجت منه قرار زواج لم يكن لها أن تترجاه، تعامل معها بقسـوة كأغلب قصص الحب التى سـرعان ما تتحول من نسـيان للذات إلى إهانة ومأساة، إنها حقا مأساة أن تنتهى معظم قصص الحب بإهانة، بإهمال ساخر من طرف للطرف الآخر.

العبوديـة للبـشر

هـل الحـب يورث الإهانة؟! إنـه أمر آخر، لعلـه عبودية من نوع خاص، شـعورها باحترامه، بتفوقه عليها وبأنه الأفضل، وبأنها تبعته ما زادها ألما، إن الحب لا يكون ضعفا إن لم يؤله المحبوب، إن لم يؤسر المحب للمحبوب، إن من يرفضون العبودية لله يقبلون العبودية للبشر، هل إن تمسكت بعبوديتها لله، ورفضت أن تعصى ربها من أجل أحد من البشر هل كانت ستشعر بمثل هذا الألم؟ هل إذا كان لها كيانها المستقل هل كانت سـتعجز هكذا؟ هل كان سامر حبها الوحيد أم ذنبها الكبير؟ هل فعلت بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: من طلب رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس ومن طلب رضا الله رضى

الله عنه وأرضى عنه الناس صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولكن هــل كانت نهــى وحيدة فى ذلك وهل هى فقط مــن تخلى عن حقيقته وتسول الأوهام؟ ألم تتلون البنات بألوان خيال الأولاد؟ ألم يغيرن فى هذا أشكالهن وأصواتهن؟ هل من أحببن استحققن ذلك؟ ألم يكن يبحثن عن الحب والزواج؟ هل جعلن من أنفســهن لعبة؟ وهل الفتيات وحدهن فى ذلك أم أن هذه سنة المجتمعات والبشر؟.. تلك المجتمعات التى لا تقل ضعفا عن فتاة مراهقة محبة صغيرة!

ألم تغير تلك الشعوب من هيئتها، ومن حدودها، ومن ملامحها، ومن ملابسها، بل أيضا لغتها؟ شعوب تحررت اليوم بفضل ما بذله أجدادهم من دمائهم، فانســاق أبناؤهم للذل والتقليد ناسين قيمهم وهوياتهم. وهل توقع الآبــاء أن يجثو هكذا الأبناء أمــام من احتل بلدهم بالأمس ليحتلوا قلوبهم وعقولهم اليوم؟ وســارت بالشوارع وظلت ترقب المجتمع حولها، لم تشعر إنها مختلفة، شــعرت أن الدنيا تدور حولها لأشــخاص مجانين مختبئين فــى مظهر يخفيهم، يخفى إرادتهم، أصالتهم، هويتهم، اختلفت الأمور خــلال بضع ســنوات، المغنية بالأمس كانت ترتــدى ملابس محترمة عن مذيعة اليوم: مسلسل اليوم أشبه بفيلم هابط أكثر من أنه دراما تليفزيونية. هــل علينا أن نتبدل لنكون كما يحب من نحب؟ لماذا تتغير الوجوه؟ لماذا تتغير المظاهر من عصر لعصر؟ لماذا تعجبنا ملابس لا نرتديها، ونلقى ملابس جديدة لمجرد مخالفتها للموضة؟ إنها ليســت المختلفة عن المكان فكل من به مختلف وغريب غريب حتى عن نفسه، لماذا أصبحت الوجوه متشابهة والنفــوس مزيفة؟ ولماذا أصبحت مظاهرنا أبعد مما تكون عن أرواحنا؟ من نحــب أن نرضى؟ أنحــب أن نرضى بعضا من مصممــى الأزياء الغربيين

الذين قد يكون منهم الكثير من المنحلين، مما سهل على الأشخاص العرى وارتداء ملابس لعلهم ما استطاعوا يوما أن يرتدوها؟ أو لاتهموا بالوقاحة أو الجنون، تغلّب عليهم أشخاص أسوأ من الشياطين، قتلوا الحياء، والشخصية المستقلة أو نحب أن نرضى محبا مذبذبا لا يعرف ماذا يريد، شباب متخبط فى ثقافات متعددة غريبة وشاذة ولا تغنى ولا تسمن من جوع ولا تعنيه كثيرا، كان سامر رمزى أحد هؤلاء الشباب تذكرته حينما كان يستمع للأغانى الغربية، متابعا بشغف الأفلام والمسلسلات والبرامج الأجنبية، منبهرا بشدة بالحياة الغربية، ومع هذا يحب أن يعيش الحياة الشرقية، خطب فتاة لم يكن مشدودا لها، وكانت ذات طبيعة مختلفة عن بطلات أحلامه، ومع هذا كان مستعدا للزواج بها، هل التناقض الذى نعيشه اليوم أثمر شخصية سامر رمزى؟ أم أثمر شخصية نهى؟ أم أثمر هذا المجتمع المتناقض مع نفسه؟ إنها ليست أزمة محب، بل أزمة مجتمع انساق وراء الأهواء التى تطلب دوما المزيد ولا تشبع، فارتدى كما تقول الموضة، وشرب السيجار والمخدر لجذب الانتباه، تشبه باليهود بالملبس، انساق العالم كله وراء مصممين علمانيين ويهود، ألبسونا ثقافة لم تكن لنا، وبعد ذلك سخروا هم أنفسهم منا، بعد أن نحلت أجسادنا وخارت قوانا، وذبلت أنفسنا وتمكن الضعف منا.

التحـــــرر

واستيقظت فجرا وشعرت بسلام وهدوء لم تعهده من قبل، بعد أن تخلت عما جعلها تتشتت كثيرا عن نفسها، وكما يخرج المريض

من حجرة العمليات يكون منهكا ولكنه سـرعان ما يمتثل للشـفاء بدأت تتحسن حالتها النفسية والصحية وثقتها بالنفس...

كما يصـرخ الطفل لحظة ولادته، كانت نهى تحتاج إلى لطمة قوية لتتخلص من العبودية، وبعد إهمال لشـهور بدأت تسـتيقظ، بعد أيام قضتها منهزمة نائمة اسـتيقظت مبكرا مشطت شعرها الطويل وارتدت فوقه الحجاب، عيناها اتسعت، لم تعد نحيلة ولكنها أصبحت رشيقة، أصبحت أكثـر ثقة بالنفس، لم تعد رهينة بذوق رجل وإن كان أكثرهم جاذبية، ليس مهما إن كان شعرها طويلا أم قصيرا، وارتدت الحجاب وارتدت جوبا طويلا وواسـعا وفوقه بلوزة رقيقة وطرحة منسـدلة على كتفيها وصدرها وخرجـت للعمل، وقررت أن تخرج من حاجز الكبت واليـأس الذى فرضته عليهـا الظروف، وخرجت فـى أول يوم للعمل بالشـركة. ومر أتوبيس الشـركة بنفس المكان الذى مرت عليه من قبل وأغلقت عينيها، وتخبطت برأسها ذكريات لحفلة ومصورين، وتكريم، وضحكات، وأجانب، وأناس فقراء وأفاقت على توقف الأتوبيس بنفس المكان، ونزلت منه مع المجموعة وتذكرت مجموعة أخرى من أشـكال مختلفـة وجنسـيات مختلفة، وأتى صاحب الشـركة بسـيارته والتى ركنهـا خلف الأتوبيس ولم ترها نهـى، كان يرتدى قميصا أزرق اللون يربط فوقه بلوفر، كانت هيئته ودخلته مبهرة،كرئيس وجيه وشـاب، ووقـف مع المجموعة بمدخل الشـركة يتحدث عـن المدينة الجديدة التى سـتبنى بالحى العشوائى وبناء مجمع دينى ليرقى بأخلاق سكان المنطقة، ويحوى مركزا طبيا وورشـات لأصحاب الحرف بالمنطقة، إننا

لــن نعطيهم هدايا أو أمــوالا نعطيها بترفع ونغادر، وإنما سنســاعدهم ليبنوا مســتقبلهم بأنفســهم وسنزرع أشــجارا وحدائق لخلق مناخ بيئى جيد بالمنطقة وأكمل قائلا: إنه ســيتم إنشاء مدينة سكنية بمياه وصرف صحى وتوصيل الكهرباء على نصف المســاحة بحيث سيساعد التوسع الرأســى على حل أزمة كل ســكان هذا الحى العشوائى، وبمقابل بيع باقى الأرض ســيتم دفع جزء كبير من تكاليف المشــروع، وسيســاعدنا أصحاب الحرف بالمنطقة وبالطبع ســيتحقق كل هذا إن شاء الله تعالى، وبينمــا كان يتحدث بحماس جال بذاكرتها خيال شــاب جاء يتخفى فى ليلة ضبابية، مرتديا ســويترا كبيرا أصفــر اللون رفع ياقته ليخفى نصف وجهه، ويتحدث بصوت خافت، وفوجئت أنها نفس العينين، نفس الصوت، وفى تلــك اللحظة التقى تاريخ قديم على صفحة عينين لفتاة وشــاب، كانت ليلة باردة، وكان واقفا على جانب الفندق، وكان يأخــذ ما معها مــن أوراق، ويقول بصوت مرتعش باك: لقد قتلوها بعد أن شــوهوا سمعتها، إننى لن أتركهم يهنــؤوا بفعلتهم، ودمعت عيناه ودمعــت عيناها، والتقت عيناهما اليــوم بعد أعوام من البكاء والحزن، وتأكدت أنه هو وتأكد أنها عرفته، فخفق قلبها بشــدة وسرت داخلها رعشة، وانسحبت بهدوء وتطلع نحوها وهى تغادر وصعدت إلى مكتبه، ودخلت ببطء وكأنها تدخل عالما من الماضى كانت قد نســيته ومع هذا يسوقها رغما عنها إلى هذا المكان، وجلست على جهاز الكمبيوتر فرأت الرسائل ورأت المشروع القديم، وفى تلك اللحظة سمعت بجوارها صوتا هادئا يقول لها: نعم إننى من أرســل لك الرســائل، فالتفتت بعينيها

الدامعتين قائلة: إنه أنت، إنك من أنهى التحقيق معى، إنك من أرسل لى الرسائل وفى تلك اللحظة خفق قلبها خفقانا تعلمه جيدا ودون تفكير هربت منه وسارت ودموعها تتساقط وقلبها يخفق بشدة وظلت تسير حتى أنهكها ألم لحظات أو ألم سنوات، تبتسم للحظة وتبكى للحظات، ويواجهها بالطريق ذكريات تتخبط أمام عينيها لسلسال قديم لسنين من الظلم...

السلسال

صور السجن... فصلها من الشركة... ترك سامر لها بالمرة الأولى... وبالمرة الثانية... تخلى زملائها عنها... الكوابيس، وقوفها وحيدة فى فناء الشركة... ووقوفها وحيدة بالشارع أمام نظر سامر... وتركها وحيدة بالسجن... وفاة والدها... ملامح وجهها الغريبة عنها لحظات ولحظات قاسية، كيف احتملتها، صور المشروع الوهمى الذى أنشئ ولم يتم، صور كاميرات، وأناس كثيرين... وسارت وهى تمسح دموعها. وما أن أنهكت حتى جلست على طرف الطريق فرأت السيارة تمر من أمامها فوقفت على ساقيها ونظرت بعناد وتحد إلى السيارة وأخرجت التليفون وفتحت الأسماء وكأنها تفتح ماضيا أغلقته وتطلعت إلى رقم محدد وضغطت على الرقم، فتوقفت السيارة بالطريق المقابل، فتجاوزت نهى الطريق، وترجل صاحب السيارة السوداء منها، وما أن تواجها حتى قال لها: مر زمان طويل فأومأت له برأسها.

الفتــاة الأخــرى

وتوجهت إلى شاطئ النهر بجوار السيارة، ونظرت إلى الشاطئ البعيد ودون أن تلتفــت إليه ســألته بغموض وقوة فتاة أخــرى اختفت لبرهة وســرعان ما عادت للظهور بعدما تخلت عمــا أصابها من وهن ونظرت نحوه: لماذا تصر على فتح صفحة أغلقت منذ ســنوات؟ فأجابها قائلا: إن كنت تستطيعين أن تنسى فسأنسى؟

فقالت: إنك من أرسل إلى الإيميلات.

فأكمل: والرسائل بالسجن.

فقالــت: إنك من زارنى بالزنزانــة حينما كنت بين الحياة والموت، وأكمل: وأدخلتك المستشفى.

فقالــت له: ولماذا أخفيت نفســك وأنت تســاعدنى؟ فأطرق رأســه ولم يعقب، فشعرت بما أحس به دون أن يتكلم ولاذا بالصمت للحظات، فأكملت محاولة تجاهل مشــاعره نحوها قائلة: إنك من كنت بالملاهى، وعلى شــاطئ النهر، ومن طالب بوقــف التحقيق معى، بالمرة الأخيرة؟ من أين لك السلطة؟

فــرد عليها: لقد تغيرت كثير من الأمــور، ونظر نحوها بتفهم أنت أيضا تغيرت.

فنظرت إلى وجهها بصفحة المياه قائلة بحسرة: نعم.

* * *

وجـــــــوه

تنهدت بحزن دفين، وهـــى تنظر نحو الماء الذى يأتى ويذهب وكأنه الزمـــن الذى يأتـــى بأيام ووجوه ثـــم يفنيها وقالت: كانـــت ليلة مخيفة رأيتهم بالفندق بشـــرم الشيخ، مجموعة من السياح الذين لا أدرى من أى البـــلاد أتوا، كانت مجموعـــة عجيبة من أعراق وأشـــكال ووجوه وأصول مختلفـــة يرقبون يتلصصون بمجرد اجتماعهم، تشـــعر بالريبة، وأغمضت عينيها بعد أن سرت بجسدها رعشة باردة غريبة، كان هناك رجل شكله مخيف ذو شـــعر أســـود طويل يغطى ظهره كله وقد أســـدل اللحية، كان قمحاويـــا وبوجهه بثور كثيرة، أما باقى المجموعة فكان شـــكلها مألوفا: فمنهم الأسمر والأبيض صاحب الملامح الشرقية والغربية، كانوا يتحدثون اللغـــة الإنجليزية، وســـرعان ما غير اثنان مـــن المجموعة الكاميرات بعد أن تحدثوا لبضع دقائق بصوت خافت لم أسمع منه ســـوى بضع كلمات بســـيطة كانوا يقولونها بصوت عال، وما أن أنهوا حديثهم حتى غادروا، وما أن ذهبوا أتانى كوب القهوة الذى بدأت أرتشف منه، وغادرت الفندق لســـاعات لأقوم بجولة، كنت هناك فى مهمة عمل تابعة لشركتنا، كنت أعدهـــا فرصـــة قد حظيت عليها، ولكنى لم أدرك أنها مأســـاتى، وما أن رجعـــت حتى اتصلت بى مدام جارانس التـــى اعتذرت بأن لديها بعض الأمور الهامة اليوم وأنها قرأت الإيميل الذى أرسلته لها الشركة بخصوص الدعم الخاص بتعمير منطقة من المناطق العشـــوائية بالقاهرة، وستتحدث معى بخصوص اتفاقية الشـــراكة بين مؤسستهم التى تعنى بمشاكل الشرق

الأوسط وبين شركتنا، وستقابلنى باليوم التالى لنتحدث عن هذا الأمر حتى وجدت ذات المجموعة بالبهو، وهناك رأيت إحدى سيدات المجموعة تقترب من فتاة مصرية اتخذت الاستايل الغربى كساتر يخفى الوهن بشخصيتها كما اعتقدت حينها، وبدأت تتحدث معها هذه المرة بصوت عال، تعالى تناولى معنا العشاء، كان يبدو أنهم تطرقوا لأكثر من حديث وكانت الفتاة تستعرض أفكارها الغربية بفخر كأنها ترتدى أفخر الثياب، وترتاد أفخم القصور وبالطبع كانت الشابة منبهرة بشدة، فقد كان يبدو عليها أنها متشربة العادات الغربية كإسفنجة واسعة المسام، كانت ترتدى تيشيرتا أسود وبنطلونا جينزا وكوفية، وجاكيتا قصيرا أسود، خلعته قبل أن تجلس ووضعت شنطتها الهافان الكبيرة على الأرض، ووضعت ساقا على ساق، لتناول العشاء، كان يبدو عليها أنها مثقفة، كانت تجيد اللغة الإنجليزية بطلاقة كانت متعلمة جيدا ولكنها منبهرة بصورة تعميها من أن تجالس أناسا لا تعلم عنهم أمرا سوى أنهم أجانب، وفجأة لاحظت امرأة من المجموعة تفحصنى لهم فوجهت لى نظرة عنيفة فاندسست بوجهى فيما أمامى من أطباق، وكان القلق على وجه الفتاة واضحا منذ البداية برغم محاولاتها أن تبدو تلقائية، وبدأت تنفض شعرها إلى الوراء وتتنفس الصعداء وتلفتت حولها مرة أو مرتين، كانت تريد أن تغادر، ولكنها لم تستطع، بالطبع لم يكن هناك سلاح يهددها، ساورنى القلق بشأنها وظللت أتابع عن كثب، ولكنها كانت محاصرة فلقد كانت واحدة وكانوا مجموعة، وكان هناك مجاملات يجب أن تمارسها لتغادر بهدوء كتناولها الطعام وابتسامتها المتكلفة التى ابتسمتها حينما استأذنت منهم

للذهاب إلى الحمام، الذى ما أن ذهبت إليه حتى رأيت عيونهم تلاحقها، فضلا عن شخص آخر لحق بها، تأكدت حينها أنها بأزمة حقيقية وأن شكوكى تلمس شيئا حقيقيا، حينها تركت طاولتى، ولحقت بها، ولا أدرى لماذا فعلت ذلك؟ لعله بالبداية كان نوعا من الفضول، ولكن فيما بعد كان إحساسى بالعطف عليها، ما الذى حاصرها هذا الحصار؟ لقد كانت محاصرة وخائفة ووحيدة، ولعل عدم استطاعتى لمقابلة الوفد وجلوسى ببهو الفندق لأرى هذه الوجوه، كانت مشيئة الله عز وجل.

آخر الممر

وفتحت باب دورة المياه وما أن فتحته حتى وجدتها تلتفت بذعر، كأنها خائفة من أحد ما، وأكملت بتوتر كتابة رسالة كانت تكتبها، فقلت لها: هل تحتاجين مساعدة؟ فقالت: شكرا لك، فاستدركت: عفوا هناك أحد ما يتبعك، من الممكن أن تحدثى أمن الفندق، فأومأت بيدها، كانت تكتب بسرعة كأنها تسرق اللحظات، وقبل أن تخرج قالت: ممكن أن تتصلى بتلك النمرة، وسكتت لحظة وكأنها تفكر بأمر ما ثم قالت: وأعطه هذه الرسالة ولا تقرئى الرسالة، وإن لم يأت فانس أمرها، شكرا، لم أكن أدرك فى تلك اللحظة أنها كانت حريصة ألا أتورط معها بالأمر، ولم أكن أدرك أنها على هذا النحو من الأخلاق الأصيلة والمسؤولية، وغادرت مسرعة! كان يبدو أنها تعلم أن هناك أمرا ما سيحدث لها، وفتحت دورة المياه ورأيتها تسير ونفس الشخص يسير وراءها حتى اختفت عن ناظرى، حينها نظرت إلى النمرة والرسالة بقلق وشعرت بمسؤولية كبيرة، وظللت

واقفة أنظر إلى المجهول الذى ينتظر فى نهاية الممر، وعلمت أنى دخلت مغارة أجهل ما بها، وفعلت كما فعلت الفتاة، وشعرت أن قصتها تشرف على الانتهاء وقصتى تشرف على الابتداء، وبدأت السير بطريق الفتاة.

ووصلت البهو فلم أجدها ولم أجد المجموعة، تلفت حولى، فلطمت بيدى الهواء وشعرت بالذنب والندم بشدة لترددى باللحاق بها، الذى دعانى لأخبر الموظف الذى اعتادت عيناه على رؤية أكثر المشاهد السلبية دون رد فعل، ولو بالغضب فى نفسه، بل تشوهت نفسه مما رآه فأصبح يغضب ممن ينتقد الأفعال السلبية وينظر لهم بنفور، فسألته عن الفتاة والمجموعة فأخبرنى أنهم قد خرجوا الآن من الفندق، فقلت له إن الفتاة طلبت المساعدة، هل له أن يستوقفهم بأى حجة أو أن يبلغ الأمن؟ فنظر لى متعجبا، قلت له إنها متورطة بأمر ما واستجديته قائلة له: لن تندم على تدخلك فرد على بعصبية: إن هذا الأمر ليس تخصصه، وإن كان لديها مشكلة كانت ستطلبها دون واسطة منى، وأضاف باستهتار: دول خواجات فى بعض، قلت له إنها مصرية، فأجابنى: ليس هذا من مسؤولياتى يافندم وقبل أن أكمل حديثى همت السيارة بالتحرك فنظرت حولى فلم أجد أحدا من الحضور سيفهمنى، البعض أجانب والبعض عربى والغالبية أتى للتسلية، فذهبت مسرعة للحاق بهم، وركبت تاكسيا كان واقفا بجوار الفندق وطلبت منه أن يلحق بالسيارة، كان يوما باردا والضباب يعمى الأبصار ولكن التاكسى لحقهم برغم سرعة السيارة، ما أتعجب منه هى حالة الوقاحة التى كانوا يمرون بها فقد كانوا يتصرفون بحرية وبلا خوف، كأن لديهم حصانة، فبدأت السيارة

تبطئ السير وحينها بدأ الخوف يتسرب إلى نفسى، وفى تلك اللحظة قال لى السائق إنهم يستدرجوننا إلى حارات جانبية، وسألنى من هؤلاء؟ ولماذا تتبعينهم؟ فشعرت كأننى أتصرف بتهور، وشعرت بالخوف، وكانت أول مرة بحياتى أشعر بهذا القدر من الخوف، فطلب منى التوقف فوافقته وطلبت منه الرجوع إلى الفندق، وبينما كانت العربة ترتد عائدة سمعنا على إثرها صرخة مدوية للفتاة، خرجت على إثرها أنا والسائق من السيارة، وذهبنا فلم نجد لهم أثرا، وعدنا أدراجنا، كان لدى شعور قوى بأن هناك أمرا ما خطيرا سيلحق بالفتاة أو أن يكون لحق بها وانتهى الأمر، وأشار لى السائق بالصعود بسرعة للسيارة فصعدت ودون أن ينتظر أمرى غادر مسرعا، وجلست متخشبة، وكان السائق بتلك اللحظة يتحدث كثيرا، وحينما نزلت عند الفندق قال لى: أنصحك لا تهتمى بالأمر وكأنك لم تر أو تسمعى شيئا، ونحن حقا لم نر شيئا، أليس كذلك؟

فبادرته القول ولم نسمع شيئا؟ وتركته مغادرة، كنت أعلم أنه لا يريد أن يورط نفسه بأمر كهذا ولم يكن معنا دليل، ولم يكن معى سوى رسالة وإحساس وصرخة قوية، ونظرت للرسالة التى بين يدى.

الرسالـــــــة

وجلست أقلب الرسالة بين يدى، حتى اتخذت قرارى وفتحت الرسالة، كأننى أفتتح عالما مخيفا، وأنا أتذكر عبارتها لا تفتحى الرسالة، ففتحتها وكانت مختصرة بها بضع سطور كتبتها ليقرأها

شــخص ما وكنت أنت الشــخص الموجه له الرســالة: إننى أشك أنهم علمــوا بالأمــر ولا أدرى ما أفعل والأوراق أخفيتها بحجرة اســتأجرتها بالأمــس، والعنوان... واتصلت بك وأخبرتنى أنك ســتأتى بالطائرة من القاهرة، ولم أفهم شــيئا ســوى الشعور بالخوف، الذى خرج مع أنفاس الفتاة وسكن بين أنفاسى.

ونظرت نحوه: ولم أجد سواك والرسالة فاتصلت بك.

فسرحت عيناه الواسعتان بعيدا كمركب شراعى يغادر من شاطئ إلى مياه البحر متذكرا ذلك اليوم، وأكمل قائلا وطرت إلى الفندق وأمســكت بقلبــى من بين براثن الذعــر، لعلى ألحق بها أو ألحــق بالقدر وجبت المدينة ذهابا وإيابا أبحث عنها.

فأكملت نهى قائلة وأخذت الرسالة، وقمت باتصالاتك، ولكن كانت اتصالاتهم أقوى.

فأكمــل بحزن: لقد كنت ضابطا بالشــرطة وتعرفت إليها عن طريق بعض الأصدقاء وصارحتنى بشــكوكها عن هــذه المجموعة، كانت تظن أننى أســتطيع حمايتها، ظنت بى القوة وما كنت ســوى شاب ضعيف أمــام كيان خائن قــوى، وتراكم ضعفى على ضعفهــا فلم يزدها قوة بل زادها ضعفا، وطلبت منها أن تنتظر، وانتظرت وانتظرت حتى أضحت الشكوك حقيقة، ففرحنا، وحين أوشك الأمر على الانتهاء انتهينا.

فــردت عليه، وقد لمســت منه حبــا للفتاة منذ لقائهمــا الأول: لقد أعجبت بها منذ اللحظة الأولى حينما أتت إلى مكتبك، فتاة مثقفة جميلة أنيقة عاشت بالدول الغربية أكثر من بلدها.

فأجابها: ولكنها نشـأت فى أسرة حافظت على أخلاقها الشرقية، كانت تتعامل بصدق.. بسـيطة عفويـة، متأثرة بنجاح وعملية المجتمع الغربى، ودون إدراك لما حولها، حاولت أن تغير واقعا مؤلما نعيشه هنا ففوجئت بأمور أشـد خطورة، فكان عقابها القتل، كان انتماؤها لوطنها وأصالتهـا قويا، برغم مظهرها الغربى! واسـتطرد قائلا إن بها شـبها منك كلا منكما لديه إعجاب بالثقافة الغربية ولكنكما لديكما تمسك قوى بجذوركما ومبادئكما مهما ابتعدتم.

فقالت: ولهذا ظللت تذكرنى؟

فرد عليها: لا. فإن كانت تشبهك فى جانب فإن بينكما اختلافات كثـيرة، كما أننى تغيرت كثـيرا عن تلك الأيام، لقد أصابنى الشـيب ومازلت شـابا بعد ما رأيت من فسـاد، فرغم مـا كان لدى قد يغتر به الكثير لكننى لم أوقفهم بل أوقفتهم أنت وما بك من ضعف.

– فقالت: واختفت منذ ذلك اليوم.

وأنهـوا أمرهـا بأسـلوبهم المعتاد تشـويه صورة أعدائهـم قبل أن يتخلصـوا منهم، وقبل أن يقتلوها، قتلوا سمعتها، وأضاعوا شـرفها، وما أسهل التشهير بسـمعة امرأة بالمجتمعات الشرقية، وصوروا الأمر بأنها فتـاة غربية ذات أصول مصرية، متحـررة، قتلت على يد أحد المدمنـين وهى تتعاطى المخـدر، بعد أن صوروها وهى تتمايل من تأثير المخدر وألقيت على طرف الطريق قتيلة، واسـتخدموا صحفهم لترويج كذبتهم، وسـقطت من عينيه دمعة حارة وهو يقول ولم يعرف سـرها سواى وسواك.

وإن لم تأت فى ذلك اليوم، لم يكن سيعرف أحد الحقيقة... يا لها من صدفة.

فردت عليه قائلة: إنه قدر.

فقال: قدرنا أم قدرهم؟

فقالت: لقد اجتمعنا جميعا من أماكن مختلفة ولأغراض مختلفة حتى ينتهى هذا الكابوس، البداية كانت عندكما والنهاية عندى. وأكمل وجاءت الضربات فى ذلك الوقت متلاحقة ومرتبة وكأنهم كانوا يعلمون بكل مخططاتنا وكانت تحركاتهم أسرع من توقعاتنا وبلا مقدمات صدر أمر بإغلاق التحقيق الأصلى، ومنع النشر عن الموضوع، ولم يعد هناك شهود ولا تحقيق ولا أدلة، وتغير موقعى من محقق إلى متهم، وعدنا إلى نقطة البداية، أو عدت وحدى دونها إلى نقطة البداية.

بروتوكـــولات

وجلست وهى تكمل: وعدت إلى الفندق وبعدها بساعة كنت أمامى مخفيا نصف وجهك، وأخذت منى الرسالة ونصحتنى بأن أخذ حذرى، ونمت ليلتها وأنا خائفة، وباليوم التالى استيقظت على رنة التليفون، وكانت من الوفد الأجنبى، وتم تحديد الميعاد بالمساء، وبين الصباح والمساء انتظرت اتصالك، ولم تتصل ولكنك أتيت قبل لقائى بالوفد بساعة بجانب الفندق وكنت خائفا حزينا وأخبرتنى وأنت مخفى نصف وجهك أيضا أنها وجدت قتيلة على أطراف المدينة، وسألتنى عن الأوراق فأعطيتك إياها، وغادرت وجلست متخشبة منتظرة الوفد الأجنبى فإذا

هى نفس الجماعــة، ذات المرأة التى تحدثت مع الفتاة بالأمس والرجل ذى اللحية وآخر صاحب الوجه البسيط، وفتاة رقيقة الملامح لم أرها من قبل، وما أن رأيتهم حتى ألجمتنى الصدمة، ووقفت متجهمة وابتســمت المرأة الأجنبية وكأنها تقول لقد تعرفنا من قبل. وبينما كان الجميع مبتسما تعرفنا بهدوء، ونظر موظف الاســتقبال متعجبا بأن من حاربتهم بالأمس جالستهم اليوم وعلى ذات الطاولة، وظننت أننى أغرقهم بينما كنت أنا من يغرق، واســتمر الحديث عن الشــركة وحاولت المرأة أن تبدو لطيفة معى فســألتنى بلباقة ماذا أحب أن أشــرب فطلبت كوبا من النسكافيه، وبينمــا كانت تتحــدث كنت أفكر ماذا أفعل؟ أســتخير الله بصمت فى قلبى، وظللت شــاردة حزينة مقتضبــة إلى أن انتهى الحوار الذى انتهى بتســليم دبلوماســى، ونظرة تحد من جانبى ونظرة تســاؤل مخيف من جانــب المرأة الأجنبية، وخلفتهم ورائى وخرجت وأنا متجهمة من باب الفنــدق الذى ما أن خرجت منه حتــى أخذت أجرى وأجرى بالحديقة الشاســعة حول الفندق، حتى أوقفنى الإرهاق ونظرت بعينىَّ الحمراوين إلى المالانهاية للبحر أمامى، ومســحت على رأســى وأنا ألاحق أنفاسى، وأخذت على نفسى عهدا ألا أدعهم حتى أكشف أمرهم.

اللقاء الثانى مع المجموعة

نظــرت إلى المرأة التــى من الواضح أنها تتحكم فــى المكان نظرة قلقة منــى مخيفــة، حينما تحدثت عــن الفتاة ومما يبــدو أن الخوف والتوتر بدا على وجهى، فتدخل الشــاب ذو الملامح البسيطة متحدثا بتأهب باد

علــى وجهه برغــم محاولته أن يبدو تلقائيا صريحا، وقف لســانى فجأة عن الحديث وغير الرجل البســيط الحوار بطريقة بهلوانية دعونا نتحدث عمــا جئنا من أجله، ولن أكذب عليك فلم أسمع شــيئا من الحوار الذى اســتمر لربع الســاعة، كنت مطرقة الرأس أتذكر تلــك الفتاة وكيف أنها كانت مفعمة بالحيوية والنشــاط، وفجأة أفيق حينما يســألاننى أين أنت فأخبرهــم: معكــم، كان يبدو أن تلك المرأة كانت كالقائد وســط مجموعة من العســكريين متخوفة بشــدة وقلقة منى وكانت صاحبة نظرات مخيفة تهددنــى بكل ما بهــا من قوة، بينما كان يبدو علــى الرجل ذى الملامح العاديــة أنه خائف، وظلت عيون ثلاثتنا تتناقــل الأفكار والتنبؤات عما سيفعله كل منا، بينما تابعنا باقى المجموعة، وأنهت تلك المرأة الحديث بتحديد الميعاد القادم وسرت وقدماى ثقيلتان كأن بهما ثقلين ونفسى عليها أحمال، كان شــعورى بالمسؤولية من ناحية وشعورى بالتخاذل من ناحية أخــرى يقتلنى، ماذا فعلت تلك الفتاة ليكون لهــا تلك النهاية المفجعة؟ إنى أشــعر بما حدث لها إننى لا أعرفها، ولكننى شــعرت بأنها كانت ضعيفة، خائفة، وأمسكت برأســى وأنا أنظر من الشرفة، إنهم يستغلون نقاط الضعف جيدا، يبحثون عنها ويدرســون كل أسبابها والظروف التى حولنا ومن ثم يستغلونها لتدميرنا، ماذا يريدون منى؟ وماذا يريدون منها؟ وماذا يريدون من هذا المجتمع؟ لا أدرى ماذا أفعل، ولكننى – بالطبع – لى فعل يجب أن أفعله مثل الفتاة، وصليت الاستخارة وتوجهت إلى رب العالمــين، ماذا أفعل؟ كنت خائفة، ولم أنم ليلتها وظللت منكمشــة على سريرى حتى طلع النهار فغلبنى النوم.

المستنقـــع

(هذا المشـــروع منبثق عنه ريبورتاجات على المنطقة... صور... أفلام فيديو تشـــوه صورة مصر... معرفة تفاصيل حياة هؤلاء الناس،... نقطة ضعف كبيرة).

وفى اليـــوم التـــالى التقيت بشـــخصيتين فقط من الوفـــد، وكانت تلك المرأة وذلك الشـــاب، وقابلتنى المرأة بترحـــاب المنتصر، بعد أن تأكدت من اتخاذى خيار الســـلام، وتحدثت بـــود و رقة كمرحلة ثانية للوصول للخضوع التام دائما، فاســـتخدمت التهديد ثم الترحيب، وكنت سلبية تماما أتلقى ولا أُلقى، لم أفهم ماذا أفعل، أعطتنى أكثر من ورقة كدعاية للمؤسســـة، التى يمثلونها، والتى لها أكثر من فرع بدول العالم مهمتها حل مشـــاكل العشـــوائيات، الأطفال المشـــردين والنهوض بـــدول العالم الثالث، ولهذا فإنها مســـتعدة لدعم شركتنا التى ستقدم بدورها دراسات ميدانية عن بعض المناطق العشوائية، وعن الأطفال المشردين، وسيتعاون معنا فى هذا الأمر مؤسســـة... البحثية، وهذا المشـــروع ســـيكون دعاية جيدة للشركة فضلا عن أن المؤسسة ستقوم على شرف هذا المشروع بإنشاء مؤسسة للأطفال المشردين، تلجم لسانى أمام تلك المعونة وشعرت بمشكلة ولكننى لم أفهمها، ورددت بدورى إننى ســـأخبر الشركة، وسلمت على الســـيدة بتحفظ ولكنـــى لا أدرى لم أطل بوجه المـــرأة الريبة من جديد؟ وعدت إلى القاهرة ولم أتطرق إلى تلك القصة إلا فى إطار الأسرة، فلم يكن هناك من سيصدق ما سأرويه وكنت أعلم أنه ليس لدى دليل، وعدت إلى الشركة وقدمت العرض ولم أكن متحمسة وعارضته لكن لم يكن هذا الأمر

من صلاحياتى، وبدأنا بتنفيذ المشـروع، وكان الأمر مؤثرا بشـدة، إنهم بشـر يعيشـون حياة لا نتوقعها، إنهم يحتاجون أى يد تقدم لهم العون ولـو كانت يد تخنقهم، وكان عملهم منظما جـادا مبهرا يدعوك للعمل معهـم وإن كنت نافرا منهم، يدعـوك للعمل وإن كنت عاجزا، يدعوك للعمل وإن كنت مرتابا، إنهم يعطونك الحلم وإن كان زائفا، فإنك تلمس أمورا لم تكن لتلمسـها وإن عملت فى طوفان العمل الوحدوى بمصر وفى موجة العمل الممتع نسـيت كل ما كان، وأخذت تتذكر أياما ظنت أنها قد نسيتها، إننى أتذكر جيدا.

لحظات تجمعنا وتبادل النكات والضحكات عملنا الجماعى الممتع، إنهم أناس يعلمون جيدا ما هو الهدف وكيفية تحقيقه، وكيف يجعلون كل امـرئ أن يعطى أفضل ما لديه، عمل منظم، ليس مرهقا، إنجازات متحققة، تشـجيع، تقدير، مناخ شيك، مناخ يجذب أصحاب النفوس الضعيفـة، اجتماعات منظمة، حوارات مفتوحة دون تكلف بين الرئيس والمرؤوسـين، تجعل كل مشـارك بالمشروع مشـاركا بالقرار، كان كحلم جماعى يمكن تحقيقه.

فقـال سـاخرا: حلم تحويل مـكان بائس إلى مكان إنسـانى، إنهم يروضون البشر.

فقالت بأسف: نعم، لا أنكر إننى سعدت بوهم النجاح، وعلى الرغم من إننى اسـتمررت معهم لمحاولتى أن أمسـك الدليل فإننى مع الأيام بـدأت تغيب صورة الفتاة من مخيلتى واحتل عقلى ما ألمسـه بيدى، وبدأت أدرج كل ما حدث بشـرم الشيخ بأنه وساوس وأوهام، وحينما

أثنـت تلـك المرأة علـى عملى قائلة لى لقـد توقعت منـك تلك الروح الإيجابية. شـعرت بالتقديـر، إنهم أناس يقدرون مـن يعمل معهم، ومـرت الأيام وأنا أحمل الدوسـيهات المحملة بمعلومـات دقيقة عن أحوال هؤلاء الناس، إنها معلومات قد تبدو بسيطة كبساطة أصحابها، ولكنها كانت خطيرة كخطورة المعلومات العسكرية، لم أكن أعلم أنا أو المجموعة ما أهمية الأمر أو ما خلفيته ولكننا اسـتخدمنا كآلات بشرية تنفذ وإن احتجنا يوما لتفسـير ما يحدث فالأسباب الإنسانية كثيرة!. إننى أذكر البريق الذى كان بعين تلك المرأة التى كانت كالصقر وسـط غابـة كثيفة الأشـجار، ونظرت إليه قائلة: كنـا نحمل بأيدينا رفات وعورات شـعبنا، أستطيع أن أقول لك لقد كنت أنتظر مثلما انتظرت، فكنت شـاهدة على الخيانة وشاركت وكان هناك الكثيرون من الخونة من الشـباب المحترم المثقف والشابات التى قد يكون الكثيرات منهن ملتزمـات ومحجبات فلم تكن جارانس تظهر حساسـية تجاه الالتزام الدينـى فلـم يكن لديها مشـكلة أن تصلى ولكن مشـكلتها أن تمنعك صلاتك من تنفيذ أوامرها!

وكان العمل – وللأسـف – بتصريح من أمن دولتنا، وكان لكل من المجموعة قسطه من الخيانة، المعظم باختيار السلبية لتغطيته، والبعض بحجة أنه لا يوجد شىء يستطيع أن يوقفهم، وإن كانت الدولة تستطيع إيقافهم لكانـت أوقفتهم، إنهم يعملون بتراخيـص، ويعملون بالنهار، وبالظاهر ولم يوجد شىء نستطيع من خلاله أن ننتقدهم فلقد استخدموا الشعارات الإنسانية كغطاء لهم كالمنظمات الماسونية.

وأتى يوم انتهاء المشـروع، إننى أتذكر ذلك اليوم، كنت أسـير من مكان قريب، وهم ينظرون بانبهار لحجر أسـاس المشـروع وحضور عدد من المسـؤولين، وحضور وسـائل الإعلام العربيـة والغربية، إنه إنجاز مهول، تحويل حى من عشـوائى إلى إنسـانى، يا له من إنجاز، انبهر كل من بالمكان، إنهم أناس يسـاعدوننا، إنهم غير ملزمين بما يقدمونه إلينا، وبدأ يتحدث أهل المنطقة الشعبيون، يتحدثون عن الإنجاز وكيف تحولت المنطقة البشعة إلى منطقة آدمية، وبخطوات بسيطة تحول المسار إلى مهزلة بكل المقاييس، وفجأة وجدتهم بعد أن سرقوا ما سرقوه، سرقوا مجدنا وتاريخنا، مقابل معونة وهمية ندفع ثمنها مقدما، ووقفت مبهوتة بما صنعناه بأيدينا، إنهم يشوهوننا، إننا حشرات وهم الأيدى البيضاء، وتحـول الحوار من تحدث عن إنجاز إلى نقد للحكومة إلى نقد لأنفسـنا وفجأة أصبحت الأرض أرضهم وبدأنا ننزوى فى أماكننا، وبدأنا نسـخر أمامهم من أنفسنا، وألبسنا ثياب العار وفجأة نظرت إلى وجه تلك المرأة فرأيت بوجهها ابتسـامة لن أنساها، ابتسـامة ساخرة شامتة، ابتسامة انتصار، ابتسامة لها أكثر من مغزى.

وغـادر الجميع وبقيت مجموعة من أشـكال ووجوه وأصول مختلفة بمجرد اجتماعهم تشعر بالريبة، كنت واحدة منها.

ولكن ما حدث تلك الليلة جعلنى رغما عنى متيقظة، متوجسة منهم خيفـة، وجعلنى أبحـث عن الكثير منهم، وعلمـت مؤخرا بأنه يوجد الكثير من الصهاينة معنا بالمشروع، حاملين جنسيات مزدوجة، وتحت قيادة منظمة تحمل شـعارا إنسـانيا يضم العديد من دول العالم وبالطبع

من ضمنها إسـرائيل، والعجيب كانت هناك معلومات كثيرة عنهم وعن صلتهم بالكيان الصهيونى على الإنترنت، والتى ما أن عرفتها...

وسكتت وظهر عليها الألم وهى تتذكر هذا اليوم الذى تحاشاها فيها الجميع حين صرخـت فى وجوههم إنكم خونة؛ أنتم تعلمون جيدا مع مـن تعملون، إنكـم مجرد عبيد على أرضكم، وبعدها خرجت مسـرعة حزينـة، ترتعش كل أوصالها بعد أن ابتعد من ابتعد باسـتحياء، ومن اقترب اقترب وهو يتلفت.

(الترويـــــض)

فـى هذا الوقت لم يكن أحـد يتوقع ما سـيحدث وإن تحدثت إما ستتهم بالخيال الواسع أو ستتهم بالجنون، فكما أن كل منا داخله الشك الـذى يحركـه، فداخله الجبن الذى قد يوقفـه، وبأى لحظة يقتل أى منهما الآخر. وبالنهاية سيطر على اليقين ومع تتبعى للمجموعة تبين لى أن جارانس تتناوب على بعض المناطق العشـوائية والتى وصل تعدادها إلى ١١٢٨ منطقة عشوائية، مع بعثات متعددة لذوى جنسيات مزدوجة، للحصـول على أكبر قدر من المعلومات، خاصة المناطق العشـوائية التى تربـى بها اليهود طالبة من المجموعة كل البيانات والوثائق فيما يخص المنطقـة، وكالعبيد كانت المجموعـة المصرية المثقفة المنقادة تعطيهم كل ما يطلبون دون سؤال، وتم اختراق تلك المناطق والتى تعد كقنبلة موقوتة لمصـر لما يعانيه سـكانها من فقـر وبطالة ومرض، فأرادوا أن يمسـكوا بفتيلهـا، لما تمثله من بؤرة للجريمة بـكل أنواعها من بلطجة، وأعمال

شـغب، وتجارة أعضـاء ودعارة، فقامـوا بتوطيد صلتهـم بالعديد من البلطجيـة، لينفذوا ما يرغبون، كما جندوا العديد من الشـباب، الذين قاموا بتسـفيرهم إلى إسـرائيل، واسـتقدموا عصابات فى صورة باحثين وصحفيـين ليقومـوا بأبحاث عن سـرقة الأعضاء، فضلا عـن نقل آثار مصرية إلى إسرائيل، والقيام بالتقاط الصور وسرقة مخطوطات فرعونية، وطلب تقارير ووثائق خاصة بالمناطق العشوائية التى كان يقطنها اليهود، وبمسـاعدة الساسة اليهود بالخارج تم تنفيذ ما يخدم مصالحهم بمصر، واخترقوا الكثير من المواقع وتدخلوا فى كل شىء فأفقدوه قيمته، السينما والصناعـة، والصحافـة، وذهبت إلى المحكمة كمـا تعلم وأعطيتهم كل ما معى من مسـتندات وخرجت وأنا أشعر بنشوة الانتصار، وكأن حملا مثقلا بالأعباء نفد منى وبعدها تم اعتقالى كما تعلم.

وقال: إن المشـروع لم يكن يعمر البلد ولكنه كان يشـوهها، والبناء الذى شيدته الجمعية لم يكن ذا قيمة والجمعية أعطتنا خسارة أكثر من مكسـب، واسـتطرد وهو ينظر إلى عينيها اللتين تنظران بحسرة لإحدى ضفاف النيل البعيدة اليوم والقريبة بالأمس وأكمل: وهذا الشـكل الذى تقمصتيه لا يضاهى شكلك الحقيقى و... سكت.

فأكملت ولم يكن سامر حبا، أليس هذا ما أردت قوله، وتركت الطاولة وهى تنظر بعيدا تجاه الشـاطئ البعيد الذى كانت تقف عليه مع سـامر، وسـألته: لماذا لم تأت لمقابلتى بعد خروجى مباشرة من السجن لقد كنت فى احتياج إليك، فأجابها: لعلى كنت خائفا أن أتسـبب فى توتر أو أن أؤذيك أكثر بقربى، فنظرت له بامتنان وهى مبتسمة قائلة: لم ولن تكون

يوما مصدرا لأذيتى، لقد كنت دوما ملاكى الحارس، فابتسم وسألها: هل هذا يعنى أنك نسيت الماضى فأجابت بصوت منخفض وكأنها تحدث نفسها لقد كانت أياما حزينة أكثر منها سعيدة، وأردفت وهى تنظر إليه لقد كنت أمسك به حتى لا أغرق فى الأحزان، فسبب لى حزنا أعمق، لقد نما وهم حبه بين جدران سجن كنت فيه أتلهى عما يصيبنى بحبه، وحينما خرجت تبدد حبه فى معترك الحياة وتبدل الحب كما تدبل بسرعة الوردة البلدى الحمراء حينما تهملها، إن من أحببته لم يكن هو، كان عمرا أردت استعادته، اشتريت الفشل والمرض والعجز وتسولت ما ليس لى، وهربت من ذاتى ونفسى فتهت وضللت وقصصت شعرى وأصاب المرض عينى وارتديت التى شيرت والجينز حتى تاهت منى نفسى، وأغضبت ربى لأرضى من حولى، لم يرضوا وضلت عنى نفسى كالكثير غيرى وسط ظلمات أضواء الزى الغربى، لم نختاره وإنما اختاروه لنا... إنه شىء من منظومة تبعية لم تأسرنى وحدى بل أسرت سامرا وأسرت جيلى بأكمله. لقد كنت مستقلة وأصبحت تابعة، اتبعت الغربيين فى ملبسهم وطريقة معيشتهم واعتقدت أننى مستقلة عنهم، إننى فعلت مثل تلك الفتاة، وفعلنا جميعا مثل العرب الذين رفضوا احتلال الغرب لهم بالأمس، وقبلوا اليوم أن يحتلوا عقلهم وخيالهم.

إنه أمر كالموت الذى نخاف أن نواجهه ولكنه حقيقة، فحقيقة اعتقالى، حقيقة شكلى، وحقيقة ظروفى، وحقيقة حبى المنهار أمور عديدة هربت منها، كما نهرب كلنا من الحقيقة، ونتخفى فى ثوب الوهم، فى ثوب الدنيا، حتى تأتى اللحظة التى ينخلع عنا ثوب الوهم،

ونــودع تلك الدنيا التى طالما قلقنا بشــأنها وتصغر فى أعيننا لأول مرة، فى آخر لحظة... لحظة الوداع أقســى اللحظات ولكنها الحقيقة. وبعد أن تخبطت وكنت على مشــارف أن أكون بلا كيان أو شــخصية قابلت نفسى، فهل أهرب منها؟

واهتزت أوراق الشــجر وتحركت مياه النيل وســارت معها العصافير فى طريقها لتستقر بين أحضان الأشجار.

بدايـــة النهايـــة

وتعجبــت للتناغــم الذى بدا بينهما واضحا، كيــف تصارحه هكذا؟، وكيــف قصت لــه كل ما أخفته عن ســامر بل عن نفســها وظلت تتذكر حوارهما الذى كان أشــبه بتناغم الآلات الموســيقية، بانسياب المياه بنهر النيــل، إنها لم تحتج أن تتجمل أمامــه أو أن تتنكر لذاتها، بل عرضتها بــكل فخر وراحة، واهتزت أوراق الشــجر وتحركت مياه النيل وســارت بجوار النيل الذى تحركت مياهه وحلقت فوقه العصافير عائدة لتستقر بين أحضان الشــجر بهدوء، وعادت إلى منزلها بهدوء وسعادة وفتحت النافذة التــى أغلقتها منذ فترة وهــى تتذكر باب الزنزانة وهو ينفتح، إنها لم تعد ذكرى مؤلمة، إنه اختبار اجتازته وأصقلها. وابتسمت بارتياح لقد أبرئت.

* * *

المســـــاء

ولم تنــم ليلتها وأخذت تقص ما حدث بحماس وســعادة لوالدتها، وما أن تنهى القصة حتى تبتدئها، ووالدتها تضحك وهى تقول: الحمد لله ربنا عوضك، دى نصرة قوية من الله، وأخذتا تحللان ما حدث مرارا وتكرارا حتى ردت عليها والدتها حماستها بحماس قائلة وهى تطير من الســعادة: خلاص نامى مش حتقدرى تقومى بكرة، فتجيبها نهى وهى تتقلب وواضعة إصبعها فى فمها كالأطفال فى دلال: أنا لن أنام الليلة، وما أن غفيت والدتها حتى أيقظتها قائلة: ماما لا تنســى أن توقظينى باكرا، فترد والدتها فى هدوء: فى عيد المشمش إن شاء الله.

اليــوم التــالى

وأيقظتهــا والدتها فجــرا وبعد أن صلت كانت تريد أن تنام بشــدة ولكنها تغلبت على النوم بشرب كوب من النسكافيه الذى أخذت تشربه وهى تتطلع لوالدتها وهى ترتشــف الشــاى، وأخذت تسألها ماذا تفعل حين تراه، فقالت لها: لا تفعلى شــيئا، انتظرى ماذا سيفعل، وارتدت أشــيك ثيابها وســألت أمها فقالت لها لقد رآك فى أحلك الأوقات لن يفرق شــىء. وذهبت للعمل وانتظــرت أن يأتى ليحادثها ولكنه لم يأت ومــر يوم العمل وهى ســارحة حزينة وبينما كانــت هكذا دخل البارتنر فأتــى أكثر من زميــل ليحادثه، وعندها علمت أنه أتى ليحادثها فخفق قلبهــا بشــدة، ونظرت فيما أمامها من أوراق وأشــار لمــن اقترب منهم

بالتوقــف الآن وتوجه إليها، وما أن أتى ليحادثها حتى انتفضت واقفة تلملم أوراقها وهى تقول: إننى كنت سأغادر الأن.

فقال لها: لقد كنت أرقبك منذ بداية اليوم.

فقالت بغضب: مما يبدو أنك أدمنت المراقبة.

فأجابها بابتسامة كاشفة لها: ولكن اليوم مراقبتك مختلفة.

– لماذا؟ هل أحببت أن ترانى وأنا مخذولة ثانية.

– لا ولكنى أحببت أن أعرف إن كنت تحبيننى.

– وهل اطمأننت؟

فأجاب بثقة: جدا.

فقالت بتعجب آه وصمتت.

وقطع الصمت وهو مبتســم: هل من الممكــن أن توصلينى إلى منزلك فســألته وهى تبتسم: لماذا؟ فأخذ نفسا عميقا وهو مخفض الرأس وينظر فى عينيها بابتسامة مداعبة:

لمقابلة والدتك

فردت بسخرية: ألا تعرف الطريق؟!

فابتسم بلؤم: لم أذهب إلى هناك.

يــوم زفافهــا

وامتلأ المنــزل بالأنوار ودخلت الفرحة المنــزل الحزين، ونظرت إلى المرآة براحة متقبلة شكلها، وارتدت فوق رأسها الحجاب وأخيرا عرف وجه أمها الراحة وهى تنظر نحو ابنتها بسعادة، وتغير من تغيروا معها

بالأمس، وأصبح الجميع منبهرا بها وابتسمت ساخرة حينما رأت الحشد حولها هو الحشـد نفسـه الذى كان بزفاف سامر وتذكرت الحشد حول المرأة الأجنبية فأطرقت برأسـها سارحة فقاطعها مازن قائلا: خلاص! فرفعت رأسها إليه قائلة: خلاص!

وركبا مع والدتها السـيارة السوداء والتى تطلع إليها سامر وتذكرها حينما كانت قلقة منها وتخبره عنها وقال لها لا تخافى وأنا بجوارك، لم يكن يعلم أنه من سـيؤذيها وأن من بها من سـيحتويها واليوم أصبح بعيـدا وأصبـح الآخر منها قريبـا وأخذ يتطلع إليها مـن بعيد، كأنها النجمة التى لم يكن مقدرا له أن يمسـكها، ولم ينظر إلى ابتسـامتها أو عينيها كما فعلت، إنما نظر إلى أنوار السيارات الفارهة ومن قبلها بريق اللؤلؤ بفستانها وعلى رأسها.

* * *

الفهــرس

إهداء ٣
مقدمة ٥
شعرك القصير وعيناك الغائرتان ٦
اللغز ١٦
دنيا ١٩
رضا الله – الصراع ٢٣
وانفض العزاء ٢٥
الحجرة الفارغة ٢٦
خوف وهروب (حقيقة.. وموت) ٢٧
النهاية ٢٩
الطيف ٣٠
العقد الخانق ٣٢
التبعية ٣٦
يوم جديد ٣٧
وانغلقت الزنزانة ٣٩
المرآة ٤١
الابتسامة ٤٢
الزنزانة ٤٣
وأغلقت قضبان النافذة ٤٤
على الشاطئ ٤٥

البنيان الهش ٤٦
العبودية للبشر ٤٧
التحرير ٤٩
السلسال ٥٢
الفتاة الأخرى ٥٣
وجوه ٥٤
آخر الممر ٥٦
الرسالة ٥٨
بروتوكولات ٦١
اللقاء الثانى مع المجموعة ٦٢
المستنقع ٦٤
الترويض ٦٨
بداية النهاية ٧١
المساء – اليوم التالى ٧٢
يوم زفافها ٧٣